« جزاء كلّ نفس بما عملت ، والله تعالى هو المبدئ المعيد الهادي للحقّ المستحقّ وحده للعبادة »

الآيات (٢٦ ــ ٣٦)

يبيّن السّياق ثواب المحسنين وأنه الجنّة وزيادة . وهذه الزّيادة تتجاوز جزاء الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وتتخطّى ذلك إلى النّظر إلى الله تعالى كما في حديث مسلم ، وينفي السّياق سوء الظّاهر بنفي القتر أو السواد ، وسوء الباطن بنفي الذّلّة ، ويقرّر الخلود في جنّات النّعيم . وإذا كان ثواب المحسنين يمثّل فضل الله تعالى فإن عقاب المسيئين يبيّن عدل الله تعالى ، فجزاء السّيّئة مثلها . وفي مقابل نفي سوء الظّاهر والباطن عن المحسنين يثبت السّياق للكافرين سوء الباطن المتمثّل في الذّلّة وقد تبيّن لهم أنّهم لا عاصم لهم من الله تعالى ، وسوء الظّاهر المتمثل في سواد الوجوه وكأنّها غطيت بقطع موصولة من حنادس اللّيل المظلم . وفي مقابل خلود المؤمنين في الجنّة يخلد الكافرون في النّار . ويوم القيامة يحشر الله تعالى العابدين ومعبوديهم ، ويميّز بينهم وبين المؤمنين ، وينكر المعبودون أن يكونوا على علم بعبادة العابدين لهم ، وكفى بالله تعالى شهيداً على ما يقولون . وهنالك ينال كلٌّ جزاءه ويغيب عن العابدين الآلهة التي ظنّوا أنّها تشفع لهم وتقرّبهم من الله تعالى زُلْفَى . ويطرح السّياق على المشركين مجموعة من الأسئلة متعلّقة بتوحيد الرّبوبيّة الذي يقرّ به المشركون والذي لم ينفعهم لأنّهم بشأن توحيد الألوهيّة يشركون مع الله تعالى سواه ، فعلى المشركين أن يتركوا الضّلال إلى الحقّ فيفردوا الله تعالى بالعبادة . وفي سبيل حمل المشركين على التّوحيد يطرح السّياق مجموعة من الأسئلة التي تبيّن معها عجز الآلهة المزعومة فهي لا تبدأ الخلق ولا تعيده والله سبحانه وتعالى يفعل ذلك ، وهي لا تهدي للحقّ والله سبحانه وتعالى يهدي للحقّ . ومع أنّ هذه الأسئلة ينبغي أن تفضي الأجوبة عليها إلى إفراد الله تعالى بالعبادة فإن المشركين يظلّون يتّبعون الظّنّ الذي لا يغني من الحقّ شيئاً وسوف يجازيهم الله تعالى يوم الجزاء .

« التّحدّي بالقرآن ، وعقاب المكذّبين في الأولى والآخرة »

الآيات (٣٧ ــ ٤٥)

يقرّر السّياق أن هذا الكتاب العزيز ما كان ينبغي أن يتخرّصه أحد من دون الله تعالى ولكنه تصديق الكتب السّماوية السّابقة ، وتفصيل ما كتبه الله تعالى على الأمّة المسلمة من فرائض وأحكام ، وأنّه لا ريب فيه ولا شك أنّه تنزيل ربّ العالمين . والعجيب في أمر كفّار

مكّة أنّهم يصرّون على الزّعم بأنّ محمّداً ﷺ قد افتراه رغم تحدّيهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم فعجزوا . إنّ السّياق يطلب منهم أن يأتوا بسورة واحدة مثله وأن يستعينوا على ذلك بمن شاءوا وبمن شاء أن يمدّ لهم يد العون . ويبيّن السّياق حقيقة الباعث للقوم على هذا الهراء وهو أنّهم لم يحيطوا بعلم هذا الكتاب العزيز ولمّا يأتهم بعد ما اشتمل عليه من أنباء وتضمّنه من غيوب . ولما كان المكذّبون السّابقون قد أهلكهم الله تعالى فعلى كفّار مكّة أن يتّعظوا بما حلّ بأولئك المكذّبين . ومن أنباء القرآن الكريم بالغيب التي تحقّقت بالفعل بعد ذلك إنباؤه بأن مِنْ كفّار مكّة من سيؤمن وأنّ منهم من سيُتَوَفّى كافراً . وقد تحقّق كلّ ذلك . ولمّا كان ما يئول إليه هذا الإنباء بالغيب يتطلّب زمناً فإنّ السّياق يوجّه المصطفى ﷺ إلى ما يقوله إلى القوم على الفور وعلى التّراخي : « لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون ممّا أعمل وأنا بريء ممّا تعملون » وينزل السّياق المكذّبين منزلة الصّمّ الذين لا يسمعون أساساً ، والعمي الذين لا يبصرون أصلاً ، ويبيّن أنّ ذلك العقاب العاجل حلّ بهم لأنّهم يستحقّونه . ويتحول السّياق إلى يوم القيامة الذي يحشر الله تعالى فيه الخلائق ويشعر فيه المكذّبون بسبب الأهوال أنّهم لم يلبثوا في الحياة الدّنيا إلا مقدار ساعة واحدة من ساعات النّهار الممتلئ بالعمل ، وفي هذه السّاعة تعارفوا في الحياة الأولى ، أو تلاوموا في الحياة الأخرى ، وتأكّد لهم خسرانهم المبين في الحياتين .

« الله تعالى هو المجازي في الأولى والآخرة المحيي المميت وإليه المرجع »
الآيات (٤٦ ــ ٥٦)

بقصد تسلية المصطفى ﷺ تخاطب الآية الكريمة الأولى المصطفى ﷺ وتقوله له : إمّا نرينّك أيّها الرّسول الكريم بعض ما نعد المستهزئين من عذاب فذاك ، أو نتوفّينّك قبل حلول العذاب بهم فإلينا مرجعهم ثم الله سبحانه وتعالى شهيد عليهم فمحاسبهم فمجازيهم . وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد بعث إلى كلّ أمّة رسولاً فإن كلّ أمّة محاسبة يوم القيامة أمام رسولها وهم لا يُظْلمون بحذف حسنة أو إضافة سيّئة . ويسأل الكافرون عن موعد يوم القيامة على سبيل الاستهزاء ، ويأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يقول للسّائلين إنّه لا يملك لنفسه ضرّاً يدفعه ولا نفعاً يجلبه ، فكيف يملك أن يخبرهم عن موعد يوم القيامة الذي استأثر الله تعالى بعلمه . إن على النّاس أن يستعدّوا ليوم القيامة بالعمل الصّالح وأن يعلموا أنّ لهم في الحياة الأولى أجلاً محدّداً ، وأنّ عذاب الله تعالى يمكن أن يأتيهم ليلاً وهم نائمون أو نهاراً وهم يلعبون ، وأنّ التّوبة ساعة وقوع العذاب غير مقبولة ، وأنّ الكافرين ذائقون عذاب الخلد

بسبب ما كانوا يكسبون في الحياة الأولى من آثام . ويؤكّد السّياق قيام السّاعة ويخبر المستهزئين بأنّهم ليسوا بمعجزين الله تعالى . ويبيّن السّياق استعداد كلّ نفس لأن تفتدي بكلّ ما تملك ولو كان ما في الأرض جميعاً ولكنّ مبدأ الفداء مرفوض ، ولا ينفع النّدم آنذاك ، وهم لا يُظْلمون بحذف حسنة أو إضافة سيّئة . إنّ الله سبحانه وتعالى الذي له ملك السّماوات يعد ، ووعده الحقّ ، بأن يوم القيامة حقّ وأنّه جلّ وعلا يحيي ويميت وإليه يرجع الخلائق بالبعث والنّشور .

« بالقرآن الهُدى ، وبالإسلام الفضل ، يكون الفرح لا بحطام الدّنيا . وإصرار أكثر النّاس على الكفر »

الآيات (٥٧ ــ ٦٠)

تنادي الآية الكريمة الأولى كلّ النّاس وتقول لهم إنّهم قد جاءتهم فعلاً موعظة من ربّهم جلّ وعلا ، وشفاء لما في الصّدور من أمراض ، وهدًى من الضّلالة ورحمة للمؤمنين ، وقد تجلّى كلّ ذلك في القرآن الكريم . ويأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يقول للنّاس إنّ عليهم أن يفرحوا بفضل الله تعالى المتمثّل في نعمة الإسلام ، وبرحمة الله تعالى المتمثّلة في إنزال القرآن الكريم ، وأن اعتناق الإسلام وتطبيق تعاليم الإسلام هو خير ممّا يجمعون من حطام الدّنيا الفاني . ويسأل السّياق في إنكار الكافرين بالقرآن الكريم وبخير الأنام ﷺ عمّا أنزل الله سبحانه وتعالى لهم من رزق فجعلوا منه حراماً وحلالاً هل أذن الله تعالى لهم بذلك أم أنّهم يفترون على الله الكذب . وبما أنّ القوم مفترون وكافرون وغير شاكرين فهل يظنّون أنّ الله تعالى لن يعاقبهم يوم القيامة ؟ إنّ الله سبحانه وتعالى لذو فضل على النّاس حينما لا يعاقبهم على الفور فعليهم أن يشكروا لله تعالى نعمه وآلاءه وألّا يكونوا من الكافرين .

« عِلْم الله تعالى العزيز القادر محيط ، وثواب المتّقين عظيم ، وعذاب المفترين على الله الكذب أليم »

الآيات (٦١ ــ ٧٠)

في سبيل تبيين علم الله تعالى المحيط يقرّر السّياق أن المصطفى ﷺ ما يكون في شأن من الشّئون ويتلو فيه وبسببه من القرآن الكريم ، كما يقرّر أنّ النّاس أجمعين لا يعملون من عمل إلا كان الله سبحانه وتعالى شهيداً على الجميع . وتأكيداً لعلم الله تعالى المحيط يقرّر

السّياق علم الله تعالى بكلّ ذرّة في السّماوات والأرض وبما دون ذلك وفوقه وتدوين كلّ ذلك في اللّوح المحفوظ . ويرقى الذين آمنوا وعملوا الصّالحات إلى مرتبة الولاية فلا خوف عليهم مستقبلاً ولا هم يحزنون على ما فات ، وهؤلاء لهم الحياة الطيّبة في الأولى والآخرة ، ولا خلف لمواعيده جلّ وعلا ، وذلك هو الفوز العظيم . وفي سبيل تسلية المصطفى ﷺ يُنْهَى عليه الصّلاة والسّلام عن الحزن بسبب أقوالهم المعادية له عليه الصّلاة والسّلام فإنّ العزّة لله تعالى السّميع العليم ، وتبعاً لذلك هي للمصطفى ﷺ وللمؤمنين . هكذا شاء الله تعالى الذي له من في السّماوات ومن في الأرض . وإنّ الذين يعبدون من دون الله تعالى ليسوا شركاء لله تعالى على الحقيقة ولن يشفعوا لهم حسب ظنّهم لأنّ الذين يشفعون هم فقط الذين يأذن لهم ويرضى عنهم الله تعالى الذي جعل الليل سكناً والنهار مبصراً فعلى النّاس أن يعوا هذه الحقائق . ومن مظاهر الشّرك الزّعم بأنّ الله سبحانه وتعالى قد اتّخذ ولداً تنزّه جلّ وعلا عن كلّ ما ألحقه به الظّالمون وتعالى علوّاً كبيراً فإنه جلّ وعلا هو الغنيّ وهو الذي له ملك السّماوات والأرض . وإنّ الذين يزعمون ذلك ليس لديهم حجّة على ما يقولون ، ويقولون بغير علم ، ويفترون على الله تعالى الكذب . إن السّياق يبيّن أنّ متاع هؤلاء الكاذبين قليل في الدّنيا ثمّ يوم القيامة لهم العذاب الشّديد بسبب كفرهم .

((طبع الله تعالى على قلوب المعتدين ابتداءً بقوم نوح عليه السّلام))
الآيات (٧١ ــ ٧٤)

يأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يتلو على كفّار مكّة نبأ نوح عليه السّلام وقومه الذين أغرقهم الله تعالى بسبب كفرهم ، فعلى كفّار مكّة أن يعتبروا بما حلّ بالكافرين السّابقين . إن نوحاً عليه السّلام مكث يدعو قومه ألف سنةٍ إلّا خمسين عاماً وقال لهم : يا قومي إن كان قد شقّ عليكم دعوتي لكم إلى الإسلام وتذكيري بآيات الله تعالى فإنّي متوكّل على الله تعالى ومستمرّ في تبليغ رسالة ربّي ولست مبالياً بكم فأجمعوا رأيكم ضدّي وادعوا شركاءكم الذين يرون رأيكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ولا مستوراً بل مكشوفاً وعلى الملأ ثم امضوا في تنفيذ ما ارتأيتم ضدّي ولا تنظروني ولا تمهلوني إلى أن يحكم الله تعالى بيني وبينكم . وأنتم إن أصررتم على الإعراض عن دعوتي لكم إلى صراط العزيز الحميد فاعلموا أنّي مواصل عملي ومتابع مهمّتي وما سألتكم من أجرٍ على دعوتي سابقاً ولن أسألكم من أجر على دعوتي لاحقاً ، فإنّ أجري على الله تعالى وحده لا شريك له ، وقد أمرني ربّي بأن أكون من المسلمين لله ربّ

العالمين . ولمّا أصرّ قومه على تكذيبه عليه الصّلاة والسّلام نجّاه الله تعالى والذين آمنوا معه في السّفينة وأغرق الكافرين ، وجعل جلّ وعلا المؤمنين يخلفون المكذّبين الذين لم ينفع معهم الإنذار . ثم بعث الله تعالى رسلاً إلى قومهم وجاءوهم بالآيات البيّنات فما كانوا ليؤمنوا بما كذّب به قوم نوح عليه السّلام من قبل ، فأخذهم الله تعالى بسبب اعتدائهم أخذ عزيز مقتدر . ولا يخفى ما تهدف إليه آيات القسم من تسلية للمصطفى ﷺ وتثبيت لفؤاده عليه الصّلاة والسّلام ، وكذلك ما تهدف إليه آيات القسم التّالي التي تتحدّث عن موسى وهارون عليهما السّلام وقومهما .

((بَعْث الله تعالى موسى وهارون عليهما السّلام إلى فرعون وملئه وتكذيبهم وإغراقهم ، وإنجاء الله تعالى المؤمنين الصّادقين))
الآيات (٧٥ ــ ٩٣)

بعد أن بعث الله تعالى نوحاً عليه السّلام والكثير من المرسلين والنّبيّين بعث كبير أنبياء بني إسرائيل موسى عليه السّلام وأخاه هارون عليه السّلام ، إلى فرعون مصر وأشراف قومه بآياته التّسع البيّنات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . فلمّا جاءهم الحقّ من الله تعالى على يد موسى عليه السّلام واستيقنت أنفسهم أنّ تلك الآيات من الله تعالى قالوا إنّ هذا الذي جاء به موسى سحر مبين . وأنكر عليهم موسى عليه السّلام زعمهم أنّ ما جاء به هو السّحر لأنّ السّاحرين بإرادة الله تعالى لا يفلحون ، وقد أفلح موسى عليه السّلام بإرادة الله تعالى . وأنكر فرعوه وملؤه على موسى أن يجيئهم بعقيدة التّوحيد ويصرفهم عمّا وجدوا عليه آباءهم من عبادة الأصنام ، كما أنكروا على موسى وهارون أن يريدا أن يكون لهما الملك والسّلطة في الأرض وأعلنوا بصريح اللّفظ كفرهم بموسى وهارون عليهما السّلام . ويطلب فرعون السّحرة من كلّ أنحاء مصر ، ويأمرهم موسى بأن يلقوا هُمْ أوّلاً حبالهم وعصيّهم ، وينذرهم موسى عليه السّلام ببطلان سعيهم وفساد عملهم ، وبنصر المؤمنين وإحقاق الحقّ بكلمات الله تعالى . وينتصر موسى عليه السّلام على السّحرة ، ويؤمن السّحرة ، ويزداد فرعون وملؤه بطشاً وطغياناً ، ولا يستجيب لموسى عليه السّلام سوى طائفة من الشّباب رغم خوفهم من بطش فرعون وملئهم ، ويطلب موسى عليه السّلام من المؤمنين أن يتوكّلوا على الله تعالى ، ويدعو المؤمنون الله تعالى ويسألونه ألّا يجعلهم فتنة للقوم الظّالمين ، وأن ينجّيهم من فرعون وملئه برحمته جلّ وعلا . ولمّا كان فرعون قد منع بني إسرائيل من الصّلاة في الكنائس أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه

هارون بأن يتّخذا لقومهما بمصر بيوتاً للعبادة ، وأن يجعلوا تلك البيوت قبلة للمؤمنين يتّجهون إليها لعبادة الله تعالى ، وأن يقيموا الصّلاة عماد الدّين ، فإنّ الفرج من الله تعالى قريب . وتجاه إصرار فرعون على البطش والعلوّ في الأرض ، وصرفه ما آتاه الله تعالى من زينة ومال للكفران وليس لشكر الله تعالى سأل موسى عليه السّلام ربّه جلّ وعلا أن يطمس على أموال فرعون وملئه ويخسف بها وأن يطبع على قلوبهم فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان حتى يروا العذاب الأليم ساعة لا ينفع الإيمان . واستجاب الله دعوة موسى وتأمين هارون عليها وأمرهما جلّ وعلا بأن يستقيما على الطّريق المستقيم ونهاهما عن اتّباع سبيل الذين لا يعلمون أنّ الله سبحانه وتعالى خلقهم من أجل إفراده جلّ وعلا بالعبادة وأنّ إمهال الله تعالى لهم ليس إهمالاً . ويوحي الله تعالى إلى موسى عليه السّلام بأن يسري بمؤمني بني إسرائيل ، ويتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً ، ويدركونهم مع شروق الشّمس ، ويوحي الله تعالى إلى موسى عليه السّلام بأن يضرب البحر بعصاه فيتحول البحر طريقاً يابساً يخترقه موسى عليه السّلام والمؤمنون معه وينجون إلى البرّ ويغرق فرعون وملؤه ، ولم ينفعه إيمانه ساعة الغرق ، ويأمر الله تعالى البحر بأن يقذف بجسد فرعون على مكان مرتفع بالسّاحل ليراه كلّ من شكّ في هلاك فرعون ويتأكد . وهكذا ينجّي الله تعالى موسى وهارون عليهما السّلام والمؤمنين ، ويهلك فرعون وملأه الطّاغين الباغين . وقد كان بنو إسرائيل محل اختبار بالنّعماء فاختلفوا بعد أن جاءتهم البيّنات وسيقضي الله تعالى بينهم يوم القيامة فيما كانوا يختلفون .

« تسلية المصطفى ﷺ وتبشير المؤمنين وإنذار الكافرين »
الآيات (٩٤ ــ ١٠٣)

أشارت آخر آيات القسم السّابق إلى اختلاف بني إسرائيل من بعد ما جاءتهم البيّنات . ومن المسائل التي اختلفوا فيها نعت المصطفى ﷺ المكتوب عندهم في التّوراة بعد أن بعث الله تعالى خاتم النّبيّين من العرب وليس من بني إسرائيل كما ظنّوا . وإنّ السّياق في معرض تسلية المصطفى ﷺ وتثبيت فؤاده يقول له : إن كنت في شكّ ممّا أنزلنا إليك متضمّناً وجود نعتك في التّوراة الموحى بها إلى موسى عليه السّلام وكذلك الإنجيل الموحى به إلى عيسى عليه السّلام فاسأل يا محمّد المنصفين المعاصرين لك من اليهود والنّصارى عن ذلك . وقد كان جواب المصطفى ﷺ : لا أشكّ ولا أسأل . وينهى السّياق على الفور المصطفى ﷺ عن أن يكون من الشّاكين ومن الذين كذّبوا بآيات الله تعالى . إنّ المكذبين

هم الخاسرون ، وإنّ الذين حقّت عليهم كلمة ربّك ووجبت عليهم كلمة الله تعالى بالعذاب لا يؤمنون ولا جاءتهم كلّ آية حتى يروا بأعينهم التي في رءوسهم العذاب الأليم كفرعون الطّاغية ولكنّ ذلك لا ينفعهم . ويستثني السّياق من هذه القاعدة قوم يونس عليه السّلام الذين شاء الله تعالى أن يكشف عنهم عذاب الخزي حينما تابوا إلى الله تعالى وقد بدت طلائع العذاب ومتّعهم الله تعالى في الحياة الدّنيا إلى حين . وكما كان صرف العذاب بإرادة الله تعالى كان الإيمان بإرادة الله تعالى فعلى المصطفى ﷺ أن يعلم ذلك وأن يعلم أن عليه البلاغ وحده وأنه لا يستطيع أن يُكْرِه أحداً على قبول الإيمان واعتناق الإسلام . وبقصد إنذار كفّار مكّة يلفت السّياق انتباههم إلى آيات الله تعالى في السّماوات والأرض ، وينبّههم إلى أن الإيمان ساعة حلول العذاب لا ينفع وأن الله تعالى ناصر المؤمنين .

« دعوة الإسلام عالميّة منذ فجرها فعلى كل النّاس أن يسلموا ، وعلى الدّعاة أن يصبروا حتّى يحكم الله خير الحاكمين »

الآيات (١٠٤ ــ ١٠٩)

بما أن دعوة الإسلام عالميّة منذ فجرها فإنّ السّياق في هذا القسم الأخير من سورة يونس المكّيّة الكريمة يأمر المصطفى ﷺ أن يقول لكلّ الناس إنهم إن كانوا في شكّ من دين الإسلام الذي بعثه الله تعالى به فليكونوا على يقين بأنّه عليه الصّلاة والسّلام لن يعبد الذين يعبدون من دون الله تعالى ولكن يعبد الله تعالى الذي يتوفّاهم وبأنّه عليه الصّلاة والسّلام قد أمره الله تعالى أن يكون من المؤمنين وأوحى إليه بأن يقيم وجهه لدين الإسلام مائلاً عن كلّ دين سواه ، ونهاه جلّ وعلا أن يكون من المشركين وأن يدعو من دون الله تعالى ما لا ينفعه ولا يضرّه وإلّا كان من الظّالمين . ولمّا كانت هذه الصّفات السّيّئة بعيدة عن المصطفى ﷺ لاصقةً بالمشركين فقد ثبت أنّهم هم الظّالمون بوضعهم العبادة في غير موضعها . وتنبيهاً إلى قدرة الله تعالى المطلقة كي يأخذ المشركون حذرهم يخاطب السّياق المصطفى ﷺ ويقول له : إنّ الله سبحانه وتعالى إن يمسسك بضرٍّ فلا كاشف له إلّا هو جلّ وعلا ، وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله جلّ وعلا الذي يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم . والآيتان الكريمتان الأخيرتان في السّورة الكريمة تخاطب أولاهما كلّ النّاس بأنهم قد جاءهم الحق من ربهم جلّ وعلا وهو القرآن الكريم وبأنّهم تقع عليهم وحدهم نعمة الهداية أو تبعة الضّلالة ، وتأمر أخراهما المصطفى ﷺ بأن يتّبع ما أوحى الله تعالى إليه من قرآن كريم وسنّة مطهّرة مبيّنة له ، وأن يصبر حتّى يحكم الله تعالى خير الحاكمين .

التّفسـيـر

« الرّسول بشير ونذير ، والله تعالى
له الخلق والتّدبير والمصير »
الآيات (١ ــ ٤)

الٓرٰ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

سورة يونس المكية تبدأ بالحروف المقطعة : « الر » وسورة يونس واحدة من تسع وعشرين سورة تبدأ بالحروف المقطعة . ومن العلماء من قال في هذه الحروف المقطعة : الله أعلم بمراده بذلك . ومنهم من ذهب إلى أن هذه الحروف المقطعة امتدادٌ للتحدي بالقرآن الكريم وتنبيه إلى أن القرآن الكريم تتألف ألفاظه من هذه الحروف التي تتألف منها ألفاظ اللغة العربية . ولكن نظم القرآن الكريم فريد بابه ونسيج وحده .

ومعنى القول : « تلك آيات الكتاب الحكيم » هذه آيات القرآن(١) المحكم(٢) الذي يُرضِي كل عقل بفصوص حكمه ، ويشبع كلَّ نفس بتدفق مائة ، وجمال جرسه ، ولطف وقعه .

ومن البين أن الآية الكريمة تُطْلِق على القرآن الكريم صفة : « الحكيم » وهي أساساً صفة تطلق على العقلاء . ومن البين كذلك أن إطلاق لفظة « الكتاب » على القرآن الكريم مراعاة لكونه مكتوباً وكون السطر أو الكتابة من وسائل حفظ الله تعالى له إلى يوم الدين . وقد قال عز من قائل(٣) : ﴿ إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾ .

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

أكان للناس عجباً : أكان لأهل مكة . والاستفهام للإنكار(٤) .

أن أوحينا إلى رجل منهم : أكان عجباً للناس إيحاؤنا القرآن(٥) إلى محمد ﷺ(٦) أن : حرف مصدري(٧) .

أن أنذر الناس : أن حرف تفسير(٨) .

وبشّر الذين آمنوا أنّ لهم : أي وأن بشّر الذين آمنوا(٩) بأنّ لهم (١٠) .

---

(١) تفسير الطبري ٥٨/١١ .
(٢) تفسير الطبري ٥٨/١١ .
(٣) سورة الحجر ٩ .
(٤) انظر الجلالين .
(٥) تفسير الطبري ٥٨/١١ .
(٦) الجلالين .
(٧) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥٨/٦ .
(٨) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٥٨/٦ .
(٩) تفسير الطبري ٥٨/١١ .
(١٠) الجلالين .

قَدَم صِدْق عند ربهم : سابقة فضيلة[1] وجاء في مقاييس اللغة[2] : « ولفلان قدم صدق ، أي شيء متقدّم من أثر حسن ... وقدم الإنسان معروفة ، ولعلّها سمّيت بذلك لأنها آلة للتقدم والسبق » والمعنى : وبشر الذين آمنوا أن لهم أجراً حسناً بما قدموا من صالح الأعمال[3] .

في أسلوب الاستفهام تنكر الآية الكريمة على من تعجّب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر كما أخبر الله تعالى عن القرون من الماضين ، وعلى من تعجب من كفار مكة من إرسال محمد بن عبد الله ﷺ واحداً منهم نذيراً وبشيراً ، بأن ينذر الكافرين بالعذاب الأليم في النار ، وأن يبشر المؤمنين بالنعيم المقيم في الجنة . وقد عبّر عن المؤمنين بالقول : « وبشّر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » والمعنى وأن بشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم أجراً حسناً بما قدموا من صالح الأعمال ، ومن أثر حسن ، ومن سابقة فضيلة .

قال ابن عباس : لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت عليه الكفار وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد . فأنزل الله تعالى هذه الآية[4] .

وقد تجاوز كفار مكة مرحلة الإنكار إلى مرحلة الزعم بأن محمداً ﷺ ساحر وأن القرآن الكريم ضرب من السحر : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾[5] .

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

الذي خلق السماوات والأرض : الذي خلق السماوات السبع والأرضين السبع[6] .

في ستة أيام : قيل كهذه الأيام وقيل كل يوم كألف سنة مما تعدون[7] .

ثم استوى على العرش : استواءً يليق به[8] والعرش أعظم المخلوقات وسقفها[9] .

---

(١) مفردات الراغب الأصفهاني : « قدم » ٣٩٧ .
(٢) « قدم » ٥/٦٥ ، ٦٦ .
(٣) تفسير الطبري ١١/٥٨ .
(٤) أسباب النزول ٣٠٥ وتفسير الطبري ١١/٥٨ وتفسير ابن كثير ٢/٤٠٦ .
(٥) سورة الكهف ٥ .
(٦) تفسير الطبري ١١/٦٠ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢/٤٠٦ .
(٨) الجلالين .
(٩) تفسير ابن كثير ٢/٤٠٦ .

تخاطب الآية الكريمة المكذبين في المقام الأول وتقول لهم : إن ربكم الذي ربّاكم بنعمه هو الله الذي لا إله إلا هو الذي خلق السماوات السبع والأرضين السبع وأبدعهما على غير مثال سابق في ستة أيام لا يعلم حقيقة طولها إلا الله تعالى ولو شاء أن يخلقها في لحةٍ لفعل . وهذا درس للبشر في التأني والتثبت . ومن الآيات الكريمات التي أشارت إلى الأيام الستة قوله تعالى في سورة فصلت[1] : ﴿ قُلْ أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً . ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة[2] أيام سواءً للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دُخان فقال لها وللأرض ائتيا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهنّ سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها . وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً . ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

وبعد خلق الله سبحانه وتعالى السماوات والأرض ومن فيهنّ وما فيهنّ استوى جل وعلا على العرش استواءً يليق به جل وعلا . وبما أن لله تعالى وحده لا شريك له الخلق والأمر ، فإن الآية الكريمة بعد الإشارة إلى الخلق أشارت إلى الأمر أو التدبير : « يدبّر الأمر » والمعنى يدبّر الله تعالى أمر الخلائق دليلاً على مطلق قدرته وقيّوميّته جلّ وعلا . وبعد الحديث في شئون الدنيا أو الأولى جاء الحديث في شئون الآخرة : « ما من شفيع إلا من بعد إذنه » ففي يوم القيامة لا تكون الشّفاعة إلّا بعد إذن الله تعالى للشفيع ورضاه جلّ وعلا عنه .

وبما أن لله تعالى وحده لا شريك له الأمر في الأولى والآخرة فذلك معناه أنه هو وحده لا شريك الله الذي يستحق أن يفرد بالعبادة . إن الآية الكريمة بهذا أمرت الناس ، وإن الآية الكريمة حثّت الذين انحرفوا عن الصراط المستقيم على أن يتذكروا ويتّعظوا .

وإن من ألطف ما يمكن التنبيه إليه في الآية الكريمة جمعها مرتين اثنتين في نسق بين اسمين من أسماء الله تعالى الحسنى الرّبّ ، وفيه التنبيه إلى توحيد الربوبية ، فالله تعالى هو وحده لا شريك له مربي عباده بنعمه وآلائه ، والله ، وفيه التنبيه إلى توحيد الألوهية ، فالله تعالى هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له . قال تعالى : « إن ربكم الله » وقال تعالى : « ذلكم الله ربّكم » .

وإن مجيء لفظ العرش في القول : « ثم استوى على العرش » يذكّرنا بما خُتِمت به سورة التوبة من ذكر للعرش العظيم . قال تعالى : « فإن تولّوْا فقل حَسْبِي الله لا إله إلا هو عليه توكّلت وهو رب العرش العظيم » .

---

(١) الآيات ٩ ــ ١٢ .

(٢) المعنى : في تمام أربعة أيام .

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

بالقسط : بالعدل والإنصاف[١] والجزاء الأوفى[٢] .

مِنْ حميم : الحميم الماء الشديد الحرارة[٣] الذي قد أُغلي[٤] وأصله مفعول صرف إلى فعيل وإنما هو محموم أي مسخَّن . وكل مسخَّن عند العرب فهو حميم[٥] .

أشارت الآية الكريمة السابقة إلى عمليات الخلق والتدبير والإذن بالشفاعة . وإنما تكون الشفاعة يوم القيامة بعد البعث . وإن الآية الكريمة التي نحن بصددها تتحدث في هذا الشأن وفي بعض الشئون الأخرى التي تكمل بها صورة الحياتين الأولى والآخرة . إن الآية الكريمة تقرر أن مرجع الخلائق جميعاً إليه جل وعلا بأن يبعثهم كما خلقهم أول مرة . ورداً على المنكرين للبعث تؤكد الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى هو الذي بدأ الخلق وهو الذي يعيده . ومع أن بدء الخلق وإعادة الخلق سواء في حق الذات العليّة فإنه لما استقر في النفوس أن إعادة العمل أهون من إيجاده لأول مرة وإبداعه جاء مثل قوله تعالى في هذا المعنى في سورة الروم[٦] : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه . وله المَثَل الأعلى في السماوات والأرض . وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ولما كانت الآية الكريمة الأولى من السورة قد أشارت إلى إنذار الكافرين وتبشير المؤمنين فإنّ الآية الكريمة في أسلوب القرآن الكريم المعجز تشير إلى الحكمة من البعث . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجزيهم الله تعالى بالقسط وبالعدل بسبب سابق الحسنات الذي لهم عند ربهم جل وعلا وقدم الصدق . أما الذين كفروا فلهم شراب من ماء حميم شديد الحرارة والغليان وعذاب أليم بسبب استهزائهم وكفرهم .

---

(١) تفسير الطبري ٦١/١١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤٠٧/٢ .
(٣) مفردات الراغب الأصفهاني : « حمم » ١٣٠ .
(٤) تفسير الطبري ٦١/١١ .
(٥) تفسير الطبري ٦١/١١ .
(٦) الآية ٢٧ .

« عذاب الكافرين الغافلين عن آيات الله تعالى الجميلة الجليلة وثواب المؤمنين المتّقين »

الآيات (٥ ــ ١٠)

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

الشمس : النجم الرئيس الذي تدور حوله الأرض وسائر كواكب المجموعة الشمسية[١] .

ضياءً : الضوء لما كان بالذات كضوء الشمس والنار ، والنور لما كان بالعَرَض والاكتساب من جسم آخر كنور القمر[٢] .

القمر : جِرمٌ سماوي صغير يدور حول كوكبٍ أكبر منه ويكون تابعاً له[٣] .

والنجم : أحد الأجرام السماوية المضيئة بذاتها ، ومواضعها النسبية في السماء ثابتة ، ومنها الشمس[٤] .

والكوكب : جرمٌ سماوي يدور حول الشمس ويستضيء بضوئها . وأشهر الكواكب مرتّبةً على حسب قربها من الشمس : عُطَارِد ، الزُّهَرة ، الأرض ، المرّيخ ، المشتري ، زُحَل ، يورانس ، نبتون ، بلوتون[٥] .

تقرر الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له الذي خلق الشمس وجعلها نجماً وهّاجاً ينبعث منها الضياء ، وخلق القمر وجعله كوكباً نيِّراً يستقبل ضياء الشمس ويعكسه نوراً . وبهذا تكون الشمس نجماً يصدر منه الضوء ، ويكون القمر كوكباً يأتي منه النور المستمد من ضوء الشمس المنعكس عليه . وبذلك يكون دور القمر في تحويل ضوء الشمس نوراً كدور المرآة العاكسة .

وبشأن القمر الذي تستطيع العين أن تتملّاه وتتابعه دون أن يلحق العين أدنى أذًى منه جاء القول : « وقدّره منازل » والمعنى أن الله سبحانه وتعالى قدّر القمر من حيث سيره منازل ، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في ثمان وعشرين ليلة من كل شهر . ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوماً ، أو ليلة إن كان تسعة وعشرين يوماً[٦] .

---

(١) المعجم الوسيط : « شمس » .
(٢) انظر المعجم الوسيط : « ضاء » .
(٣) المعجم الوسيط : « قمر » .
(٤) المعجم الوسيط : « نجم » .
(٥) المعجم الوسيط : « ككب » .
(٦) الجلالين .

وقد جعل الله تعالى كلًّا من الشمس والقمر ذا طبيعة خاصة به لنعلم عدد السنين والأعوام ، ولنعلم حساب الشهور والأيام . وإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق ذلك إلا بالحق ولحكمة عظيمة وحجة بالغة . وإن الله سبحانه وتعالى يفصّل الآيات لقوم يعلمون هذه الدقائق والعجايب فيقدرونها حق قدرها ويفردونه جل وعلا بالعبادة .

وإن هذه مناسبة طيبة كي ننبّه إلى إفادة محمد بن الحسن بن الهيثم ٣٥٤ ـ ٤٣٠هـ ٩٦٥ ـ ١٠٣٨م ، وهو مهندس من أهل البصرة ، ويلقّب ببطليموس الثاني[١] إلى إفادته من هذه الآية الكريمة التي فرّقت بين النجم والكوكب وبين ما يصدر عن الشمس من ضوء وما يصدر عن القمر من نور . تقول الدكتورة هونكة[٢] : « إن فضل ابن الهيثم على الفَلَك يتجلّى في اكتشافه أن جميع الأجرام السماوية ومن بينها النجوم الثابتة ترسل نورها[٣] ما عدا القمر الذي يستمد نوره من الشمس . وهذه النتيجة التي انتهى إليها ابن الهيثم نقلته إلى فكرة أخرى جديدة أدت إلى ثورة عارمة في علم الفلك . فقد عارض ابن الهيثم العاملين الإسكندريين أويقليد وبطليموس فأثبت خطأ نظرياتهما » .

وفي أثناء دراستنا المتأملة لسورة الأحزاب[٤] وفّقنا الله تعالى لتبيين الحكمة من وصف الآية الكريمة السادسة والأربعين لمحمد بن عبد الله ﷺ بأنه سراج منير وليس بأنه قمر منّير أو سراج مضيء ، والمراد بالسراج الشمس لأن كلًّا من السراج والشمس مصدر للطاقة . إن الآية الكريمة من سورة الأحزاب في نعت المصطفى ﷺ : « وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » تخلع على المصطفى ﷺ خير ما في كلٍّ من الشمس والقمر . أما خير ما في الشمس أو السراج فإن كلًّا منهما مصدر للطاقة . وكذلك المصطفى ﷺ هو مصدر كل خير . وأما خير ما في القمر فإنه انتفاء الأذى مطلقاً ومجيء الخير خالصاً . وكذلك المصطفى ﷺ :

قد سمعنا عن ضربة الشمس لكن ما سمعنا عن ضربة الأقمار[٥] .

---

(١) الأعلام ٦/٨٣ .

(٢) طريق المسلمين إلى الثورة الصناعية . محمد جلال كشلك ٢٢ الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م القاهرة .

(٣) المراد ترسل ضوءها .

(٤) تأملات في سورة الأحزاب من مطبوعات نادي مكة الثقافي ١٤٠٣هـ .

(٥) البيت المذكور أوحت به المناسبة .

إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

تقرر الآية الكريمة أن في اختلاف الليل والنهار بالذهاب والمجيء ، والطول والقصر ، والزيادة والنقصان ، والسّواد والبياض ، وأن فيما خلق الله سبحانه وتعالى في السماوات من ملائكة وشمس وقمر ونجوم ، وفي الأرض من إنسان وحيوان ونبات وجماد لآيات بيِّنات لقوم يتقون الله سبحانه وتعالى بفعل الأوامر واجتناب النواهي ويخشونه جل وعلا في السر والعلن .

ومن البين أن الآية الكريمة تقدم الليل في الذكر على النهار لأن الليل هو الأصل ولأن الظلمة هي الأساس . ولعلنا لاحظنا استعمال الآية الكريمة السابقة جملة : « جَعَل » بمعنى صيّر في حق كلٍّ من الشمس والقمر ، وكأن جملة : « جعل » تشير ضمناً إلى جملة : « خلق » التي تشير إلى مرحلة سابقة لم يكن فيها شمس ولا قمر[1] .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

إن الذين لا يرجون لقاءنا : إن الذين لا يخافون لقاءنا يوم القيامة[2] .

بعد أن تحدث السياق من ذي قبل عن خلق الله تعالى السماوات والأرض والتدبير والمصير ، وعن جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً ، وإلى وجوب استفادة الناس من آيتي الليل والنهار ومن كل ما خلق الله في السماوات والأرض تحوّل إلى الحديث عن الكافرين وعن المؤمنين . وإنما تقدّم الحديث عن الكافرين بسبب كثرتهم بالقياس إلى المؤمنين .

إن الآية الكريمة الأولى تبين صفات أولئك الكافرين ، وإن الآية الكريمة الأخرى تبين الجزاء الذي يستحقه أولئك الكافرون .

إن الآية الكريمة الأولى تصف الكافرين بأنهم لا يخافون لقاء الله تعالى يوم القيامة فكفروا برسالة محمد بن عبد الله ﷺ . وبسبب انصرافهم عن الله تعالى وعن الآخرة انصرفوا إلى

---

(١) الجلالين في تفسير الآية الثالثة التي جاء فيها ذكر الأيام الستة التي خلق الله سبحانه وتعالى فيها السماوات والأرض .

(٢) تفسير الطبري ٦٢/١١ .

الحياة الدنيا فرضوا بها واطمأنوا إليها وبها . وبناءً على ذلك كانوا غافلين عن آيات الله تعالى في السماوات والأرض ، وعن آي الكتاب الحكيم الذي أوحاه الله تعالى إلى محمد بن عبد الله ﷺ .

وإن الآية الكريمة الأخرى تقرر أن النار مأوى أولئك الكافرين يوم القيامة بسبب ما كانوا يكسبونه في الحياة الأولى من آثام .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم
بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾
دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ
دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

يهديهم ربهم بإيمانهم : يحتمل أن تكون الباء ههنا سببية ، فتقديره : أي بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه إلى الجنة . ويحتمل أن تكون للاستعانة(١) .

دعواهم فيها سبحانك اللّهمّ : دعاؤهم فيها سبحانك اللّهمّ(٢) وأما قوله سبحانك اللهم ، فإن معناه : تنزيهاً لك يا ربِّ مما أضاف إليك أهل الشرك بك من الكذب عليك والفرية(٣) .

وتحيتهم فيها سلام : وتحية بعضهم بعضاً فيها سلام ، أي سلمت وأمنت مما ابتلي به أهل النار(٤) .

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين : وآخر دعائهم أن يقولوا الحمد لله رب العالمين . ولذلك خفّفت أن ولم تشدّد لأنه أريد بها الحكاية(٥) واسم أَنْ المخففة من الثقيلة هنا ضمير الشأن واجب الحذف(٦) .

على غرار حديث الآيتين الكريمتين السابقتين عن الكافرين وعقابهم تتحدث الآيتان

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٠٨/٢ .
(٢) تفسير الطبري ٦٤/١١ .
(٣) تفسير الطبري ٦٤/١١ .
(٤) تفسير الطبري ٦٤/١١ .
(٥) تفسير الطبري ٦٥/١١ .
(٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٦٩/٦ .

الكريمتان هنا عن المؤمنين وثوابهم . وإذا كان ثمة آية كريمة تحدثت عن صفات الكافرين وآية كريمة أخرى تحدثت عن عقاب الكافرين فإن أكثر حديث الآيتين الكريمتين عن المؤمنين من زاوية ثوابهم العظيم في جنات النعيم .

إن الآية الكريمة الأولى تكتفي في حديثها عن المؤمنين بوصفهم بأهم صفاتهم وهي صفة الإيمان وبأنهم يعملون الصالحات . وبذلك هم يعطون الدليل العملي على صدق إيمانهم . ووراء ذلك تتحدث الآية الكريمة وكذلك الآية الكريمة التي تليها عن ثواب المؤمنين ونعيمهم .

إن الآية الكريمة الأولى تقرر أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم جل وعلا بسبب إيمانهم . وأول ما يلفت النظر مجيء لفظ الرب المضاف إلى الضمير العائد إلى أولئك المؤمنين . والمعروف أن لفظ الرب إنما يُسْتَعْمَل في القرآن الكريم في مواقف الخصوص وحينما يكون الجو معطّراً بشذا الحب والحنان . وقد أعطى ضمير الغائبين العائد إلى المؤمنين واللاحق بلفظ الرب في القول : « ربهم » معنًى غير بعيد من المعنى الذي يفيده القول : « عباد الرحمن » أو : « عباد الله » إن هؤلاء المؤمنين هم عباد الله تعالى وعباد الرحمن وهو جل وعلا ربهم الذي ربّاهم بنعمه وآلائه .

ونستطيع أن نفهم من القول : « يهديهم ربهم بإيمانهم » أن الهداية تشمل كلًّا من الأولى والآخرة بسبب إيمانهم وقد زادهم الله تعالى هدًى إلى هداهم في الأولى وهداهم إلى الجنة في الآخرة . جاء بشأن الهداية في الأولى قوله تعالى في سورة محمد عليه الصلاة والسلام[1] : ﴿ والذين اهتَدَوْا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم ﴾ وجاء بشأن الهداية في الآخرة إلى الجنة قوله تعالى في سورة محمد عليه الصلاة والسلام أيضاً[2] : ﴿ والذين قُتِلوا في سبيل الله فلن يُضِلّ أعمالهم .سيَهْدِيهِمْ ويُصْلِحُ بالهم . ويدخلهم الجنة عرّفها لهم ﴾ وإن ثمرة هداية الله تعالى المؤمنين في الأولى أن يدخلوا الجنة التي تجري من تحت شجرها ومن تحت المؤمنين أنواع الأنهار من ماءٍ غير آسن ومن لبن لم يتغير طعمه ومن خمر لذة للشاربين ومن عسل مصفّى . وبهذا اقترن النعيم بالجنة في القول في الآية الكريمة : « تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم » .

---

(١) الآية ١٧ .

(٢) الآيات ٤ ــ ٦ .

وإذا كانت الآية الكريمة تتحدث عن الثواب الذي يتعلق به الجزاء العملي في هداية التوفيق في الأولى ، والهداية إلى الجنة وإلى أنهارها المتدفقة ونعيمها المقيم فإن الآية الكريمة التالية تتعلق بالقول على ألسنة المؤمنين .

إن الآية الكريمة الأخرى تقرر أن دعاء المؤمنين في جنات النعيم هو تنزيههم الله تعالى عن كل ما لا يليق به جلّ وعلا ، وإن تحية المؤمنين فيما بينهم في الجنة هو السلام والأمن والطمأنينة ، وأن آخر دعائهم يتمثل في حمد الله تعالى رب العالمين ، والثناء عليه جل وعلا بما هو أهله ، والمعروف أن الألف واللام لاستغراق جميع أصناف الحمد(١) .

---

(١) انظر مثلاً البحر المحيط ١٨/١ وتفسير ابن كثير ٢٣/١ وتفسير القرطبي ١١٦ .

« جنس الإنسان عجول وكفور ،
ولا أحد أظلم ممّن كذب
على الله أو كذَّب بآياته »
الآيات (١١ ــ ١٧)

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۚ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

ولو يعجل الله للناس الشر : ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم في الشّرّ ، وذلك فيما عليهم مضرة في نفس أو مال[١] .

استعجالهم بالخير : كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به[٢] .

لَقُضِيَ إليهم أجلهم : لهلكوا وعجّل لهم الموت وهو الأجل . وعنى بقوله : لقضي ، لفرغ إليهم من أجلهم وتبدّى لهم[٣] .

فنذر الذين لا يرجون لقاءنا : فنترك[٤] وندع الذين لا يخافون عقابنا ولا يوقنون بالبعث ولا بالنشور[٥] .

في طغيانهم : في تمردهم وعتوّهم[٦] .

يعمهون : يتردّدون متحيّرين[٧] .

تقرر الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى لو يعجّل للنّاس العجولين بطبعهم إجابة دعائهم له جلّ وعلا في الشّرّ على أنفسهم وأولادهم وأهليهم وأموالهم وما إلى ذلك كما يعجّل لهم جلّ وعلا إجابة دعائهم له جلّ وعلا بالخير الذي لا يسأمون من دعائهم جلّ وعلا به لقُضِي إليهم أجلهم ولحلّ هلاكهم وأسرع موتهم ، ومن باب الأَوْلَى أن يُقْضَى الأجل إلى ما لا يقلّ عن النّفس قيمة ، وعن الذّات منزلة .

---

(١) تفسير الطبري ١١/٦٥ .
(٢) تفسير الطبري ١١/٦٥ .
(٣) تفسير الطبري ١١/٦٥ وانظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٣٠٦ .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير الطبري ١١/٦٥ .
(٦) تفسير الطبري ١١/٦٥ .
(٧) الجلالين .

إنّ لسان الحال يقول بما تنطق به هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء[1] : ﴿ ويدعو الإنسان بالشّرّ دعاءه بالخير . وكان الإنسان عجولاً ﴾ كما يقول بما تنطق به هذه الآية الكريمة من سورة فصّلت[2] : ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسّه الشّرّ فيئوسٌ قنوط ﴾ .

وإنّ الإنسان حال الآية الكريمة وراء ذلك يقول بما ينطق به الحديث النّبويّ الشّريف عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم ، لا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله تعالى ساعةً فيها إجابة فيستجيب لكم[3] .

وإنّ النّهي عن الدّعاء بالشّرّ رشّح للحديث عن شرّ النّاس الذين لا يخافون لقاء الله تعالى ولا يعملون ليوم القيامة المجموع له الناس المشهود . إن هؤلاء الذين آثروا الضّلالة على الهدى زادهم الله تعالى إلى عماهم عمى وتركهم في ضلالهم يتردّدون متحيّرين .

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

وإذا مسّ الإنسانَ الضّرّ : وإذا أصاب الإنسان الشّدّة والجهد[4] والمرض والفقر[5] .

دعانا لجنبه : دعانا مضطجعاً لجنبه[6] .

مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرٍّ مسّه : استمرّ على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضّرّ ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه ، وترك الشّكر لربّه الذي فرّج عنه ما كان قد نزل به من البلاء[7] وذهب كأنّه ما كان به من ذلك شيء[8] وكأن : حرف تشبيه ونصب مخفّف من الثّقيلة ، واسمه محذوف أي كأنّه[9] .

من الجائز أن يصيب الإنسان العجول بطبعه الضّرُّ استجابةً لدعائه بالشّرّ الذي أشارت إليه الآية الكريمة السّابقة أو ابتداءً ، ولا يصيب الإنسان شيء من ضرٍّ إلا بإرادة الله

---

(١) الآية ١١ .
(٢) الآية ٤٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤٠٨/٢ .
(٤) تفسير الطبري ٦٦/١١ .
(٥) الجلالين .
(٦) تفسير الطبري ٦٦/١١ والجلالين .
(٧) تفسير الطبري ٦٦/١١ .
(٨) تفسير ابن كثير ٤٠٩/٢ .
(٩) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٧٢/٦ .

تعالى الفعّال لما يريد . فما هو موقف الإنسان الجزوع بطبعه إذا مسه الشر وقد قال تعالى[1] : ﴿ إنّ الإنسان خُلِق هلوعاً . إذا مسّه الشّرّ جَزوعاً . وإذا مسّه الخير مَنوعاً . إلّا المصلّين ﴾ من البيّن أن الآيات الكريمات تستثني المصلين كما يستثنيهم هذا الحديث النبوي الشريف . قال رسول الله ﷺ : عجباً لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له : إن أصابته ضرّاء فصبر كان خيراً له ، وإن أصابته سرّاء فشكر كان خيراً له . وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمنين[2] وكأن آية سورة يونس لا تعني المؤمنين الصابرين ، وكأنّها تعني جنس الإنسان الهلوع الجزوع .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أن الإنسان إذا مسّه الضّرّ من شدّةٍ وكربٍ ومرضٍ وفقرٍ دعا الله سبحانه وتعالى وألحف في الدّعاء في الحال التي اضطره الضّرّ إليها . وتشير الآية الكريمة إلى ثلاث حالات للمضطرّ أو ثلاث هيئات ، وتعبّر كلّ حالةٍ أو هيئة عن مقدار الضّرّ وأثره على المضطرّ ، مقدّمةً الحال الأشدّ التي اضطرّت الإنسان للاضطجاع لجنبه ، تليها الحالة الشديدة التي اضطرته للقعود ، تليها أقلّ الحالات شدةً وهي التي أمكن معها القيام .

وإذا كان القائم يدعو الله تعالى أن يكشف ضرّه ، فهو يدعو كذلك حينما يكون قاعداً أو مضطجعاً ، وإذا كان القاعد يدعو ، فهو يدعو كذلك حينما يكون مضطجعاً . وكأنّ القائم يستطيع أن يقعد ويضطجع ، وكأنّ القاعد يستطيع أن يضطجع ، وكأنّ المضطجع لا يستطيع أن يجلس فضلاً عن أن يقوم .

وإنّما تعمّدنا استعمال جملة يجلس هنا لأن هذه اللغة الشريفة قادرة بشأن جملتي جلس وقعد أن تعيّن الاتّجاه إضافةً إلى تبيين الهيئة . وتفسير ذلك أن هيئة الجلوس والقعود واحدة ، ولكن حينما يكون الاتّجاه من أعلى إلى أسفل نقول : كان قائماً فقعد . أمّا حينما يكون الاتّجاه من أسفل إلى أعلى فإنّا نقول : كان مضطجعاً فجلس .

فإذا تحولنا إلى الآية الكريمة تبيّنّا أنّها تشير إلى الاضطجاع فالقعود فالقيام . فدلّ ذلك على أنّ المراد وصف ثلاث هيئات للمضطرّين الثلاثة ، وليس المراد وصف ثلاث هيئات لمضطرٍّ واحد ، وإلّا لكان التّحوّل في الآية الكريمة من الاضطجاع إلى الجلوس إلى القيام .

وإذا كانت الآية الكريمة هنا رتّبت الأحوال الثلاثة بناء على شدّة تمكّن الضّرّ من المضطرّ ، فإن الآية الكريمة التّالية من سورة النّساء تقلب التّرتيب رأساً على عقب ، لأنّها في

---

(١) سورة المعارج ١٩ ــ ٢٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٠٩/٢ .

مجال الحثّ على الحال الأفضل في أثناء ذكر الله تعالى سواء كان ذلك في الصّلاة أو في غير الصلاة . ولما كان ذكر الله تعالى سهلاً ميسوراً في كلّ الأحوال ، وكان الغالب على جنس الإنسان الصّحّة والقدرة على القيام ، وبخاصّة في حقّ الصلاة عماد الدّين ، فقد كان الابتداء بالقيام . قال تعالى[1]: ﴿ فإذا قضيتم الصّلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصّلاة . إنّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ .

أما وقد كشف الله تعالى عن المضطرّ ضرّه . فما هو موقف الإنسان الكفور الكنود من كشف الله تعالى ضرّه ؟ الجواب : « مرّ كأنّ لم يدعنا إلى ضرّ مسّه » ذهب الكفور مع أهوائه ، وانساق الكنود وراء شهواته ، وعاد إلى سيرته السّيّئة الأولى قبل أن يتمكّن منه الضّرّ ، وقبل أن يدعو الله سبحانه وتعالى أن يكشف ضرّه ، ويزيل سوءه ، ويكتب الله تعالى له السّلامة والعافية !

وتقرّر الآية الكريمة أنّه كما زُيِّن لهذا الهلوع الجزوع الكفور الكنود سوء عمله زُيِّن للمسرفين الكافرين المستهزئين ما كانوا يعملون .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾

ولقد أهلكنا القرون من قبلكم : ولقد أهلكنا الأمم التي كذّبت رسل الله من قبلكم أيّها المشركون بربّهم[2] .

لمّا ظلموا : لمّا أشركوا وخالفوا أمر الله ونهيه[3] .

تخاطب الآية الكريمة من سورة يونس الكريمة المكّيّة كفّار مكّة المشركين المكذّبين لرسول الله ﷺ المصرّين على الكفر . إن الآية الكريمة تخاطب كفّار مكة في أسلوب القَسَم وتقول لهم : لقد أهلكنا القرون من قبلكم ودمّرنا الأمم السّابقة الكافرة لمّا أشركت بالله تعالى ، وكذّبت رسل الله تعالى التي جاءتهم فعلاً بالبيّنات والحجج الواضحات ، ورفضت الإيمان

---

(١) سورة النساء ١٠٣ .

(٢) تفسير الطبري ٦٦/١١ .

(٣) تفسير الطبري ٦٦/١١ .

وأصرّت على الكفر . إنّ الله سبحانه وتعالى كما أهلك الأمم السّابقة الكافرة يجزي القوم المجرمين من أمثال كفّار مكّة المصرّين على الكفر وتكذيب المصطفى ﷺ والقرآن الكريم الموحى به إليه عليه الصلاة والسلام .

ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

خلائف : جمع خليفة[1] .

بشأن محاولة معرفة الذين تخاطبهم الآية الكريمة نستطيع أن نستأنس بالآيات الكريمات من سورة الأعراف . قال تعالى[2] : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك . قال سنقتّل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده . والعاقبة للمتّقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . قال عسى ربّكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ .

ومن البيّن أن موسى عليه السلام يخاطب المؤمنين من أتباعه عليه السلام : « عسى ربكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون » ومن البيّن وجه الشّبه بين هذا القول على لسان موسى عليه السلام للمؤمنين من قومه وبين الآية الكريمة التي نحن بصددها من سورة يونس . وكأنّ الآية الكريمة كما تهدّد كفّار مكة الذين جعلهم الله تعالى خلائف الأمم السابقة التي أهلكها الله تعالى تنبّه المؤمنين من أتباع محمد بن عبد الله ﷺ إلى رسالتهم وإلى خطورة مهمّتهم وإلى مسئوليّتهم أمام الله تعالى . وكأنّ الآية الكريمة تنبّه المؤمنين إلى مثل قوله تعالى في سورة النّور[3] : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً . يعبدونني لا يشركون بي شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ كما تنبّه المؤمنين إلى مثل قوله تعالى في سورة محمّد ﷺ[4] : ﴿ وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم ﴾ .

---

(١) الجلالين .
(٢) سورة الأعراف ١٢٧ ــ ١٢٩ .
(٣) الآية ٥٥ .
(٤) الآية ٣٨ .

إنّ الآية الكريمة تخاطب المؤمنين وسواهم وتقول لهم : بعد أن أهلكنا الأمم السّابقة المكذّبة جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم ومكّنّا لكم فيها لننظر كيف تعملون . أتؤمنون أيّها الكافرون أم تصرّون على كفركم . أتشكرون أيّها المؤمنون لله تعالى نعمه وآلاءه عليكم أم تكفرون ؟ إنّكم جميعاً راجعون إلى الله تعالى فمحاسبكم يوم القيامة ، فمجازٍ كلًّا على عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ . في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : إنّ الدّنيا حلوةٌ خَضِرةٌ وإنّ الله مستخلفكم فيها فناظرٌ كيف تعملون ، فاتّقوا الدُّنيا واتّقوا النّساء فإنّ أوّل فتنة بني إسرائيل كانت من النساء[1] .

وإنّ الآيتين الكريمتين التّاليتين تشيران إلى موقف كفّار مكة من القرآن الكريم ، وإلى تكذيبهم لآيات الله تعالى البيّنات ، وذلك على غرار تكذيب الأمم السّابقة التي أهلكها الله تعالى بذنوبها ، وإلى الجواب الذي على المصطفى ﷺ أن يقول لهم .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

قال الذين لا يرجون لقاءنا : قال الذين لا يخافون عقابنا ولا يوقنون بالمعاد إلينا ولا يصدّقون بالبعث لك[2] .

إن أتّبع إلا ما يوحَى إليَّ : ما أتّبع في كلّ ما آمركم به أيّها القوم وأنهاكم عنه إلّا ما ينزله إليّ ربّي ويأمرني به[3] .

ولا أدراكم به : ولا أعلمكم به[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٠٩ .
(٢) تفسير الطبري ١١/٦٧ .
(٣) تفسير الطبري ١١/٦٧ .
(٤) تفسير الطبري ١١/٦٧ و ٦٨ .

فقد لبثت فيكم عمراً من قبله : فقد مكثت فيكم أربعين سنةً من قبل أن أتلوه عليكم ومن قبل أن يوحيه إليّ ربّي (١) .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أن المصطفى ﷺ إذا تلا آيات الله تعالى البيّنات على كفّار مكة(٢) وهم الذين لا يخافون لقاء الله تعالى ، ولا يؤمنون بالبعث والنّشور ، ولا يعملون لذلك اليوم المجموع له الناس المشهود ، قالوا للمصطفى ﷺ ائت بقرآن غير هذا القرآن الذي تتلوه لأنّ فيه شتم آلهتنا وتسفيه أحلامنا ، أو بدّله بحذف ما لا نرضى منه وإضافة ما نرضى منه . وبذلك الطّلب جعل الكافرون المصطفى ﷺ مخيّراً بين تغيير القرآن الكريم تغييراً كلّياً أو تبديل أجزاءٍ منه فقط .

وانظر إلى الجواب الذي يلقّنُهُ المصطفى ﷺ . إنّ ربّ العزّة يأمر المصطفى ﷺ أن يقول لكفّار مكّة إنّه ليس من حقّي أن أبدّل شيئاً من القرآن الكريم من تلقاء نفسي ومِنْ قِبَل ذاتي . ومن البيّن أنّ الجواب متعلّق بنفي القدرة على تبديل أيّ شيءٍ من القرآن الكريم ومن باب الأولى والأحرى نفي القدرة على أن يأتي عليه الصلاة والسلام بغير القرآن الكريم .

وبعد نفي قدرة النبي ﷺ على تبديل شيء من القرآن الكريم يؤمر بأن يقول كذلك بأنّه عليه الصلاة والسلام إنّما يتّبع ما يوحيه الله تعالى إليه من قرآن كريم ، وبأنّه عليه الصلاة والسلام يخاف إن عصى ربّه جلّ وعلا عذاب يوم عظيم . وعندما يكون لفظ الرّبّ في القرآن الكريم إنما يجيء بقصد التّنبيه إلى نعم الله تعالى ووجوب القيام بالشّكر عليها يكون في ذكر الرّبّ في القول : « أخاف إن عصيت ربّي » إظهارٌ للنّعم في صورة أشدّ بياضاً ، وإظهارٌ للمعصية في صورة أشدّ سواداً .

وبعد نفي القدرة على تبديل شيء من القرآن الكريم فضلاً عن تغيير كلّ القرآن الكريم تأمر الآية الكريمة الأخرى المصطفى ﷺ أن يقول للمشركين ما فيه حثٌّ لهم على استعمال عقولهم . إن الآية الكريمة الأخرى تأمر المصطفى ﷺ بأن يقول لكفّار مكّة بأنّ الله سبحانه وتعالى لو شاء ألا يتلو المصطفى ﷺ القرآن الكريم عليهم وألّا يعلّمهم به لفعل ولما أوحاه الله تعالى إليه أصلاً . وإنّ أكبر دليل على صدق ما يقوله المصطفى ﷺ هو أنه عليه الصلاة والسلام مكث في كفّار مكّة عمراً من قبل نزول القرآن الكريم ، ولبث أربعين سنة قبل البعثة ، ولم يعرف ﷺ قبل ذلك عن القرآن الكريم أيّ شيء . بل إنّه عليه الصلاة والسلام

---

(١) تفسير الطبري ٦٧/١١ .

(٢) انظر أسباب النزول ٣٠٥ .

كان يلقّبه كفّار مكة قبل البعثة ونزول القرآن الكريم بالأمين . وهل الذي يصدق مع عباد الله تعالى يكذب على الله تعالى ! « أفلا تعقلون » أفلا تستعملون يا كفّار مكة نعمة العقل التي هي مناط التّكليف استعمالاً صحيحاً : ﴿ أم على قلوبهم أقفالها ﴾[1] .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّه لا أحد أظلم ممّن افترى على الله تعالى الكذب بأن زعم ـ مثلاً ـ أنّ الله تعالى أوحى إليه ولم يوحَ إليه شيء كمسيلمة الكذاب ، كما أنه لا أحد أظلم ممّن كذّب بآيات الله تعالى ككفّار مكّة . إنه لا يفلح المجرمون الكافرون .

ومن البيّن أن الآية الكريمة تذكر فريقين اثنين . وقد تبيّن أنّ الآيتين الكريمتين السابقتين تشملان هذين الفريقين . إنّ كفّار مكّة يطلبون من المصطفى ﷺ أن يفتري على الله تعالى الكذب بأن يأتي بقرآن غير هذا القرآن أو بأن يبدّله . وإنّ كفّار مكة يكذّبون المصطفى ﷺ وما أوحى الله تعالى إليه من قرآنٍ مجيد .

---

(١) سورة محمد عليه الصلاة والسلام ٢٤ .

« كان الناس مسلمين ثم تفرّقوا ،
وسيجازي الله المشركين المستهزئين الماكرين »
الآيات (١٨ ــ ٢١)

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ
وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ
ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ
وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

نستطيع أن ننظر إلى الآية الكريمة في ضوء هذه الآية الكريمة الثالثة والثلاثين من سورة الرّعد . قال تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كلّ نفسٍ بما كسبت . وجعلوا لله شركاء قل سمّوهم . أم تنبّئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول . بل زُيِّن للّذين كفروا مَكْرُهُمْ وصُدُّوا عن السَّبيل . ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ ومعنى آية سورة الرّعد : أفمن هو قائم على كلّ نفسٍ بما كسبت ، لأنه جلّ وعلا لا يخفى عليه خافية ، أحقّ بالعبادة ، أم الأصنام العاجزة عن دفع الضّرّ عنها وجلب النّفع إليها فضلاً عن غيرها ؟ والاستفهام كما هو واضح للإنكار والتّوبيخ . وجعلوا لله سبحانه وتعالى شركاء في استحقاق العبادة قل لهم يا محمّد سمّوهم كي تتبيّنوا أنّها أسماء ولا مسمّيات تحتها . أم تنبّئون الله سبحانه وتعالى بما لا يعلم في الأرض من أصنامٍ معبودة لها دورٌ في الخلق والأمر : « أم بظاهرٍ من القول » والمعنى أنّ ما يتفوّه به كفّار مكّة باطلٌ من القول ، لا معنى تحته ولا فائدة وراءه[1] والحقيقة أنّ كفّار مكّة قد زُيّن لهم مكرهم وكيدهم وكفرهم وصدّوا عن سبيل الله . ومن يضلل الله تعالى فما له من هادٍ يهديه إلى الصّراط المستقيم .

ومن البيّن أنّ وجه الشّبه بين الآيتين الكريمتين يتّضح في القول : « أم تنبّئونه بما لا يعلم في الأرض » وفي القول : « قل أتنبّئون الله بما لا يعلم في السّماوات ولا في الأرض » « وإنّما خصّ الأرض بنفي الشّريك عنها ، وإن لم يكن له شريك في غير الأرض ، لأنّهم ادّعوا له شركاء في الأرض »[2] بينما جمعت آية سورة يونس بين السّماوات والأرض ، لأنّها تعني عموم ما يُعْبَد من دون الله تعالى .

بناءً على ما سبق يكون معنى الآية الكريمة ــ والله تعالى أعلم ــ ويعبد كفّار مكّة من دون الله تعالى ما لا يضرّهم لو لم يعبدوه ولا ينفعهم لو عبدوه ويقولون عن الأصنام المعبودة والآلهة المزعومة : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ و : ﴿ ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى ﴾[3] قل

(١) تأملات في سورة الرعد للمؤلف ١٩٨ القاهرة ١٩٧٩م .
(٢) تفسير القرطبي ٣٥٥٢ .
(٣) سورة الزمر ٣ .

لهم يا محمّد أتنبّئون الله تعالى وتعلمونه جلّ وعلا بما لا يعلم في السّماوات ولا في الأرض من آلهة من حقّها أن تُشْرَك في العبادة مع الله تعالى المستحقّ وحده لا شريك له للعبادة ، وأن تشفع يوم القيامة لعابديها ، وهي التي لا تخلق شيئاً بل هي المخلوقة لله تعالى ، ولا تملك ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ! والاستفهام للإنكار والتّقريع والتّوبيخ . ولهذا جاء القول : « سبحانه وتعالى عمّا يشركون » تنزّه جلّ وعلا وتعالى عمّا يشرك أولئك الظّالمون الكافرون الكاذبون .

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ النّاس من عهد آدم عليه السلام لم يكونوا إلا أمّةً واحدة دينها الإسلام لله ربّ العالمين فاختلفوا وتفرّقت بهم السّبل فمنهم من آمن ومنهم من كفر . ولولا كلمةٌ سبقت من ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم بتأخير الحساب فالثّواب أو العقاب إلى يوم القيامة يوم الجزاء لقضي بين المؤمنين والكافرين في هذه الحياة الأولى فيما فيه يختلفون من شئون الدّين .

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ ۖ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

من الذين تفرّقت بهم السّبل عن صراط الله تعالى الحميد كفّار مكة الذين بعث الله تعالى فيهم محمد بن عبد الله ﷺ وأنزل عليه القرآن الكريم . والآية الكريمة تقرّر أن كفّار مكة يقولون هلّا[1] أنزل على محمد آية حسّيّة كناقة صالح وعصا موسى من ربّه جلّ وعلا بدلاً من القرآن الكريم . والآية الكريمة تلقّن المصطفى ﷺ الجواب الذي يقوله لأولئك المعاندين وهو أنّ الغيب لله وحده لا شريك له . إنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم الآية النّافعة في حقّ كلّ رسول . وإنّما جعل الله تعالى آية محمد بن عبد الله ﷺ معجزةً بيانيّة لأن القوم

---

(١) تفسير الطبري ١١/٧٠ .

أئمة البيان وفرسان الكلمة ، فكان التّحدّي من جنس ما نبغوا فيه . وحينما يكذّب كفّار مكة المعجزة التي هي من جنس ما نبغوا فيه فمن باب الأَحْرى والأَوْلَى أن يكذّبوا الآية أو الآيات الأخر التي تقلّ عن المعجزة البيانيّة في مجال الإقناع . ثمّ إنّ من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى أنّ كفّار مكة لو تحقّقت الآية أو الآيات التي اقترحوا لأصرّوا على كفرهم ، لأنّهم متعنّتون ولا تنقصهم الحجّة ، وفي الإصرار على الكفر هلاكهم جرياً على سنّة الله تعالى التي لا تتخلّف مع القوم الظّالمين . ولهذا تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول للكافرين بأن ينتظروا أمر الله تعالى فيهم فإنّ المصطفى ﷺ والمؤمنين منتظرون أن يفتح الله تعالى بينهم وبين القوم الكافرين .

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

تقرّر الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى إذا أذاق كفّار مكة ومن شاكلهم رحمةً من مطر ، ورخاء ، وخصب ، من بعد ضرّاء مستهم ، من قحط ، وشدة ، وجدب ، إذا لهم مكرٌ في آيات الله تعالى واستهزاءٌ بها وكيدٌ لها . إنهم بدلاً من أن يشكروا لله تعالى نعمه وآلاءه ويقوموا بما يجب عليهم من إفرادٍ لله تعالى بالعبادة هم يكفرون ويشركون . وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول للقوم الماكرين : إن الله سبحانه وتعالى أسرع مكراً وألطف كيداً . إنهم يظنّون إمهال الله تعالى لهم إهمالاً ولا يفطنون إلى أنّ إمهال الله تعالى استدارجٌ لهم حتّى يأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً . وإنّ على كفّار مكة ومن شاكلهم أن يعلموا أنّ رسل الله تعالى المنوط بهم كتابة الأعمال يكتبون ما يمكر أولئك الكافرون في كتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها كي يجازوا عليها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم .

« الله تعالى يحمل عباده في البرّ والبحر ، وينعم عليهم ويبتليهم ، وعليهم العمل للآخرة »

الآيات (٢٢ ــ ٢٥)

هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ
وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟
ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

حتى إذا كنتم في الفُلْك : في السُّفن[١] ويستعمل ذلك للواحد والجمع[٢] .

وفرحوا بها : وفرحوا بالرِّيح الطَّيِّبة[٣] .

جاءتها ريحٌ عاصف : جاءت الفُلْك ريحٌ عاصف ، وهي الشّديدة . والعرب تقول : ريحٌ عاصفٌ وعاصفة ، وقد أعصفت الرّيح وعصفت[٤] .

وظنّوا أنهم أحيط بهم : وظنّوا أنّ الهلاك قد أحاط بهم وأحدق[٥] ويرى ابن فارس[٦] أن الحاء والواو والطّاء كلمةٌ واحدة ، وهو الشّيء يطيف بالشّيء . فالحَوْط من حاطه حَوْطاً . والحمار يحوط عانته : يجمعها . وحوّطت حائطاً . ويرى ابن فارس[٧] أيضاً أنّ الحاء والياء والطّاء ليس أصلاً . ويقول الرّاغب[٨] : « الحائط : الجدار الذي يحوط بالمكان . والإحاطة تقال على وجهين : أحدهما في الأجسام نحو : أحطت بمكان كذا . أو تُسْتَعْمَلُ في الحفظ نحو : إنّ الله بكلّ شيءٍ محيط ، أي حافظٌ له من جميع جهاته » .

متاع الحياة الدّنيا : متاع ، مفعول مطلق لفعل محذوف . أو مصدر في موضع الحال[٩] يقول الطبريّ[١٠] : « والمتاع منصوباً على الحال » .

---

(١) تفسير الطبري ١١/٧٠ .
(٢) مفردات الراغب الأصفهاني : « فلك » ٣٨٥ .
(٣) تفسير الطبري ١١/٧٠ .
(٤) تفسير الطبري ١١/٧٠ .
(٥) تفسير الطبري ١١/٧٠ .
(٦) معجم مقاييس اللغة : « حوط » ٢/١٢٠ .
(٧) معجم مقاييس اللغة : « حيط » ٢/١٢٥ .
(٨) مفردات الراغب الأصفهاني : « حائط » ١٣٦ .
(٩) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٦/٨٧ .
(١٠) تفسير الطبري ١١/٧١ .

تخاطب الآية الكريمة الأولى الناس أجمعين ، مؤمنين وكافرين ، وتقول لهم : إنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي يسيّركم في البرّ والبحر ويحملكم في البرّ على الظّهور وفي البحر على السّفن « حتى إذا كنتم في الفلك » وكنتم مسافرين بحراً في السّفن . ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تتّجه إلى الرّكوب بحراً وتترك الرّكوب برّاً لأن آية الحمل على الماء أكثر طواعيةً لأن تكون نعمةً فنقمةً فنعمة . ومن الملاحظ أن الخطاب في القول : « حتى إذا كنتم في الفلك » يشمل المؤمنين والكافرين ، كما يشمل الذين اختبرهم الله تعالى في البحر والذين لم يختبرهم . ومن البيّن أنّ الاختبار في الآية الكريمة كان من نصيب الكافرين وحدهم ، وهنا نتبيّن أنّنا أمام ما يُسَمَّى في البلاغة العربيّة بالالتفات . وإنّ أهمّ شروط الالتفات متحقّق هنا وهو عودة ضمير المخاطبين في القول : « حتى إذا كنتم في الفلك » وعودة ضمير الغائبين في القول : « وجرين بهم بريح طيّبة » على واحد . وقد عرفنا هذا الواحد هنا بأنّهم الذي حملهم الله تعالى في الفلك من مؤمنين وكافرين .

لقد كان الحمل في الفُلْك للمؤمنين والكافرين في القول : « حتّى إذا كنتم في الفلك » وكان جري الرّيح الطيّبة للمؤمنين والكافرين في القول : « وجرين بهم بريح طيّبة وفرحوا بها » ويلاحظ أن أسلوب الالتفات جاء هنا مشيراً إلى اشتراك المؤمنين والكافرين في الرّيح الطّيّبة وفي الفرح بها . وقد استمرّ المؤمنون في ريحهم الطّيّبة وفي فرحهم وشكرهم لله تعالى ، أمّا الكافرون فإنهم يستمرّ معهم أسلوب الالتفات منبّهاً إلى أنّهم محلّ الاختبار من الله تعالى بسبب انصرافهم عن الله تعالى وانصراف رحمة الله تعالى عنهم وغضب الله تعالى عليهم . وما أشدّ الوفاق بين أولئك المغضوب عليهم الضّالين وبين ضمائر الغائبين المستعملة في حقّهم دليلاً على بعدهم من رحمة الله تعالى واستحقاقهم الطّرد من رحمة الله تعالى ولو إلى حين .

ونستطيع أن نفهم فرح الكافرين بأنّه فرح أشرٍ وبطر وأنه ليس من جنس فرح المؤمنين .

وبشأن القول : « جاءتها ريحٌ عاصف وجاءهم الموج من كلّ مكان وظنّوا أنّهم أحيط بهم » نودّ أن نقف عند بعض الجمل والألفاظ .

وأول ما نودّ الوقوف عنده جملة جاء التي جاءت مرّتين اثنتين . مرّةً مع الرّيح العاصف ومرّةً أخرى مع الموج الذي جاء من كلّ مكان . والمعروف أنّ جملة « جاء » لا تُسْتَعْمَل في القرآن الكريم إلّا دليلاً على القرب المكانيّ أو الزّمانيّ أو النّفسيّ . وهي هنا تُسْتَعْمَل دليلاً على القرب المكانيّ ، فالرّيح العاصف قد وصل فعلاً والموج الذي يشبه الجبال قد جاء فعلاً من كلّ مكان .

ونودّ أن نقف كذلك عند لفظة « ريح » والحقيقة أنّ هذه اللّفظة جاءت مرّتين اثنتين وفي استعمالين مختلفين . مرّة في اليسر وذلك في القول : « وجرين بهم بريح طيّبة » ومرةً أخرى في العسر وذلك في القول : « جاءتها ريحٌ عاصف » والمعنى جاءت الفلك أو السّفن ريحٌ عاصف . والفلك يقع على الواحد والجمع ، ويذكّر ويؤنّث[1] .

والمعروف أن القرآن الكريم يستعمل في الرّحمة لفظة رياح بصيغة الجمع لأن نزول المطر وليد التقاء مجموعة من هذه الرّياح ، وأنّ القرآن الكريم يستعمل في العذاب لفظة ريح بصيغة المفرد لأن الريح الواحدة متماسكة ملتئمة . فإذا كانت الرّحمة تقتضي هذه الرّيح الواحدة الملتئمة المتماسكة كتسيير السّفن جاءت لفظة الرّيح ومعها القرينة التي تصرف لفظة ريح عن العذاب إلى الرحمة وذلك على غرار لفظة طيّبة في الآية الكريمة التي نحن بصددها من سورة يونس : « وجرين بهم بريح طيبة » .

وبشأن ريح العذاب جاءت موصوفة بلفظة عاصف : « جاءتها ريحٌ عاصف » وهي اللّفظة التي نودّ أن نقف عندها . والمعروف أنّ العصف أقلّ من القصف قوّة ، لأنّ من طبيعة قاصف الرّيح أن يقصف ويكسر ما صادف من سواري السّفن مثلاً وما إلى ذلك . ولا يشترط هذا في عاصف الرّيح لأنه أقلّ قوّة[2] وإنّ الدّليل من القرآن الكريم على ما قلنا من فرقٍ دقيق بين العصف والقصف أنّ الآية الكريمة التّاسعة والسّتّين من سورة الإسراء استعملت قاصف الرّيح مع غرق السفينة . قال تعالى[3] : ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البرّ أو يرسل عليكم حاصباً ثمّ لا تجدوا لكم وكيلاً . أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارةً أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الرّيح فيغرقكم بما كفرتم ثمّ لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ أمّا الآية الكريمة التي نحن بصددها من سورة يونس فإنّها تستعمل لفظة « عاصف » الأقلّ قوّة من لفظة « قاصف » تنبيهاً إلى المعنى الدّقيق لهذه اللّفظة ، وإلى أنّ رحمة الله تعالى بالعباد تظلّ شاملةً لهم مع عاصف الرّيح وإن اقترن بذلك كسر لبعض أجزاء السّفينة . والدّليل على ذلك أن رحمة الله تعالى أنقذت السّفينة من الغرق الذي كاد يحلّ بها . وقد صرّحت بالنّجاة الآية الكريمة التّالية .

ومن الألفاظ التي نودّ الوقوف عندها لفظة مكان في القول : « وجاءهم الموج من كلّ

---

(١) تفسير القرطبي ٣١٦٣ .

(٢) تأملات في سورة الإسراء للمؤلف ٢٣٣ القاهرة ١٩٧٨م .

(٣) سورة الإسراء ٦٨ ، ٦٩ .

مكان » ويلاحظ أنّ لفظة : « مكان » هنا أبلغ من لفظة جهة مثلاً وما شاكلها لأنّ لفظة مكان تشمل كلّ الجهات الأصليّة والفرعيّة وما تحت الفرعيّة . وبهذا يتبيّن أنّ لفظة « مكان » هنا تشمل كلّ الجهات بلا استثناء ، وبذلك هي رشحت لمجيء جملة « أحيط بهم » في القول : « وظنّوا أنّهم أحيط بهم » وهذا القول يذكّرنا بما جاء على لسان يعقوب عليه السّلام في سورة يوسف عليه السّلام . قال تعالى[1] : ﴿ قال لن أرسله معكم حتّى تؤتون موثقاً من الله لتأتنّني به إلّا أن يحاط بكم . فلمّا آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل ﴾ والمعنى أنّ يعقوب عليه السّلام يقول لأبنائه الذين طلبوا منه أن يسمح لهم باصطحاب بنيامين شقيق يوسف عليه السّلام إلى عزيز مصر الذي اشترط عليهم ذلك إذا أرادوا الطّعام منه مستقبلاً ، يقول لأبنائه إنّي لن أرسل بنيامين معكم حتّى تؤتوني عهداً مؤكّداً بقَسَمٍ بالله تعالى لتأتنّني به معكم حينما تعودون من رحلتكم إلى عزيز مصر إلّا أن يحاط بكم ، وإلا أن يقضي الله تعالى بشرٍّ يحيط بكم ولا تستطيعون له دفعاً . فلمّا أعطى الأبناء أباهم يعقوب عليه السّلام العهد المؤكّد بيمين قال الله تعالى على ما نقول جميعاً وكيل .

وبناءً على ذلك نستطيع أن نفهم الإحاطة في الآية الكريمة : « وظنّوا أنّهم أحيط بهم » بأنّ المراد بها إحاطة الموت بهم بسبب كسر السّفينة وغرقها .

في ضوء ما سبق يكون المعنى والله تعالى أعلم : إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحملكم في البرّ والبحر . حتّى إذا كنتم أيّها النّاس في السّفن وجرين بهم ريح طيّبة ، وفرح بها المؤمنون فرح شكر لله تعالى على نعمه وآلائه ، وفرح بها الكافرون فرح أشر وبطر ، جاءت سفنَ الكافرين ريحٌ عاصفٌ عَصَفَ بالسّفن ، وجاءهم الموج من كلّ مكان بفعل الرّيح العاصف ، وظنّ الكافرون أنّ الموت أحاط بهم ، وأيقنوا أن الشّرّ أحدق بهم ، دعوا الله تعالى وحده لا شريك له مخلصين له الدّين قائلين : يا ربّنا لئن أنجيتنا من هذه الأهوال لنكوننّ من الشّاكرين لك مستقبلاً العابدين لك وحدك لا شريك لك .

والآية الكريمة الأخرى تبيّن أن هؤلاء المشركين لمّا أنجاهم الله تعالى من البحر إلى البرّ إذا هم يبغون في الأرض بغير الحقّ ويطغون . وتنادي الآية الكريمة النّاس وتقول لهم إنّ بغيكم عائدٌ على أنفسكم وحدكم ، لأنّ الأذى مرتدٌّ عليكم وخاصٌّ بكم ومقصورٌ عليكم . تمتّعوا متاع الحياة الدنيا ثمّ إلينا مرجعكم يوم القيامة فنخبركم بما كنتم تعملون ونجازيكم .

---

(١) سورة يوسف ٦٦ .

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ
نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ
أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ
بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ
يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

إنّما مثل الحياة الدّنيا كماءٍ أنزلناه من السّماء : كمثل ماءٍ أنزلناه من السّماء وكمطر أرسلناه من السّماء إلى الأرض[1] .

فاختلط به نبات الأرض : فاختلط بسببه نبات الأرض واشتبك بعضه ببعض[2] ونبت بذلك المطر أنواعٌ من النّبات مختلطٌ بعضها ببعض[3] .

حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها : الزّخرف الزّينة المزوّقة . ومنه قيل للذّهب زخرف . قال : بيتٌ من زخرف ، أي ذهب مزوّق . وقال : وزخرفاً : وقال : زخرف القول غروراً : أي المزوّقات من الكلام[4] .

وازّينت : فيه إبدال التّاء زاياً وأصله تزيّنت ، قلبت التّاء زاياً ثمّ سكّنت للإدغام ، ثمّ جيء بهمزة الوصل تخلّصاً من البدء بالسّاكن[5] .

أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً : جاء الأرضَ قضاؤنا بهلاك ما عليها من النّبات إمّا ليلاً وإمّا نهاراً[6] .

فجعلناها حصيداً : أصل الحصد قطع الزّرع[7] وقطعه وقلعه من أصوله ، وإنّما هي محصودة صرفت إلى حصيد[8] أي كالمحصود بالمناجل[9] .

---

(١) تفسير الطبري ٧١/١١ .
(٢) الجلالين .
(٣) تفسير الطبري ٧١/١١ .
(٤) مفردات الراغب الأصفهاني : « زخرف » ٢١٢ .
(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩١/٦ .
(٦) تفسير الطبري ٧٢/١١ .
(٧) مفردات الراغب الأصفهاني : « حصد » ١٢٠ .
(٨) انظر تفسير الطبري ٧٢/١١
(٩) الجلالين .

كأن لم تغن بالأمس : كأن لم تكن تلك الزّروع والنّبات على ظهر الأرض نابتةً قائمةً على الأرض قبل ذلك بالأمس . وأصله منْ غَنِيَ فلان بمكان كذا يَغْنَى به إذا أقام به[1] وغَنِيَ في مكان كذا إذا طال مَقامه فيه مستغنياً به عن غيره بغِنًى[2] .

والله يدعو إلى دار السّلام : أي السّلامة[3] من الهموم والأحزان[4] والآفات والنّقائص والنّكبات[5] .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أن مثل الحياة الدّنيا وصفتها في سرعة تقضّيها وفنائها إنّما هو كمثل ماءٍ أنزله الله تعالى من السّماء فاختلط بسببه نبات الأرض وتداخل بعضه في بعض وتشابك . وهذا النّبات ممّا يأكل النّاس من بُرٍّ وذُرَةٍ وغيرهما ، وممّا تأكل الأنعام من كلأٍ وأبٍّ[6] ونحوهما . ويلحق بهذين النوعين من النّبات ذلك النّوع الذي يُتّخَذُ زينةً للأرض ، ومتاعاً للعين ، وبهجةً للنّفس ، وهو نوعٌ تأكله الأنعام كلّه أو جلّه ، ويصحّ للإنسان أن يأكل بعضه . حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها المصطنع المزوّق بفعل الإنسان ، وتزيّنت الأرض ذاتها ، وارتدت أجمل ثيابها ، وتقلّدت أحلى أزهارها ، وتعطّرت بأطيب ورودها ورياحينها ، وظنّ أهلها الذين ملكت عليهم شغاف قلوبهم أنّهم قادرون عليها ، وأنّها طوع بنانهم ورهن إشارتهم ، والذين شُغِلوا بها عن الآخرة ، وفتنوا بمتاعها الزّائل عن نعيم الآخرة المقيم ، أتاها أمرنا بالهلاك وقضاؤنا بالدّمار ليلاً أو نهاراً فجعلنا الأرض التي كانت بهجة النّفس ومتعة العين كأنّما حُصِدت بالمنجل حصداً ، وجعلنا تلك الزّروع والنّبات كأنها لم تكن قائمةً بالأمس أصلاً .

وإنّ في ذكر اللّيل والنّهار تنبيهاً إلى أنه لا يوجد في هذه الحياة الأولى ليلٌ مطلق ولا نهارٌ مطلق ، لأنّ المكان الذي يعتبر فيه الوقت ليلاً يقابله في الكرة الأرضيّة مكان آخر يعتبر فيه الوقت نهاراً .. وهكذا .. وإنّ في تقديم اللّيل على النّهار في الذّكر تنبيهاً إلى أنّ الظّلام هو الأصل وأنّ الضّياء ــ أو النّور ــ طارئ عليه .

إنّ في مثل هذه الطّريقة يفصّل الله تعالى آياته لقومٍ يتفكّرون ..

وتقرّر الآية الكريمة الأخرى أن الله سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى الجنّة دار السّلام والأمن والطّمأنينة ، ودار السّلامة من الهموم والنّقائص والنّكبات ، وأنّ الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم هو دين الإسلام الذي بعث به حبيبه محمّداً ﷺ .

---

(١) تفسير الطبري ٧٢/١١ .
(٢) مفردات الراغب الأصفهاني : « غنى » ٣٦٦ .
(٣) الجلالين .
(٤) تفسير الطبري ٧٣/١١ .
(٥) تفسير ابن كثير ٤١٣/٢ .
(٦) الأب : ما ترعاه البهائم .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : إني رأيت في المنام كأنّ جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلاً ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنّما مثلك ومثل أمّتك كمثل ملكٍ اتّخذ داراً ثمّ بنى فيها بيتاً ثمّ جعل فيها مأدُبةً ثمّ بعث رسولاً يدعو النّاس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرّسول ومنهم من تركه . فالله الملك . والدّار الإسلام . والبيت الجنّة . وأنت يا محمّد الرّسول ، فمن أجابك دخل الإسلام ومن دخل الإسلام دخل الجنّة ومن دخل الجنّة أكل منها[1] .

(١) تفسير ابن كثير ٤١٤/٢ وتفسير الطبري ٧٣/١١ .

« جزاء كل نفس بما عملت ، والله
تعالى هو المبدىء المعيد الهادي
للحقّ المستحقّ وحده للعبادة »
الآيات (٢٦ ــ ٣٦)

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

للّذين أحسنوا الحُسْنَى : الجنّة[١] .

وزيادة : النّظر إلى وجهه الكريم جلّ وعلا[٢] .

ولا يرهق وجوههم : ولا يغشى وجوههم[٣] ولا يعتريها[٤] يقال : رَهِقَه الأمر إذا غشيه بقهر[٥] .

قَتَرٌ : سواد[٦] وقتام[٧] وغبار[٨] والقتر : الغبار ، وهو جمع قترة[٩] والقتر : الدّخان السّاطع من الشّواء والعود ونحوهما[١٠] .

تشير الآية الكريمة إلى ثواب الذين أحسنوا في هذه الحياة الأولى . إن لهم يوم القيامة ثواباً لإحسانهم في الحياة الأولى ، الجنّة التي فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ولهم وراء الجنّة زيادة . وهذه الزّيادة تتجاوز الثّواب على الحسنة المتمثّل في عشر أمثالها وفي السّبعمائة ضعف إلى النّظر إلى وجه الله تعالى الكريم في جنّات النّعيم .

إنّ الحسنى بمعنى الجنّة جزاء الإحسان . وقد قال تعالى[١١] : ﴿ هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان ﴾ وإنّ الزّيادة تفضّل عليهم من الرّحمن . ونتيجةً للإحسان والزّيادة عليه تبدو عليهم نضرة النّعيم التي عُبِّر عنها بنفي السّواد أن يغشى وجوههم ، وقد اقترن بنضرة الوجوه سرور النّفوس وبهجتها . وقد عبّر عن سرور الدّاخل وبهجته بنفي الذّلّة والخنوع .

(١) تفسير الطبري ٧٣/١١ وتفسير ابن كثير ٤١٤/٢ والجلالين .
(٢) تفسير ابن كثير ٤١٤/٢ وتفسير الطبري ٧٣/١١ والجلالين .
(٣) تفسير الطبري ٧٦/١١ والجلالين .
(٤) تفسير ابن كثير ٤١٤/٢ .
(٥) مفردات الراغب الأصفهاني : « رهق » ٢٠٤ .
(٦) الجلالين .
(٧) تفسير ابن كثير ٤١٤/٢ .
(٨) تفسير الطبري ٧٦/١١ .
(٩) انظر تفسير الطبري ٧٦/١١ .
(١٠) مفردات الراغب الأصفهاني : « قتر » ٣٩٣ .
(١١) سورة الرحمن ٦٠ .

إنّ أولئك هم أصحاب الجنّة ، وهم الخالدون فيها .

وقد روي تفسير الزّيادة بالنّظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصّدّيق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عبّاس وسعيد بن المسيّب وعبد الرّحمن بن أبي ليلى وعبد الرّحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضّحّاك والحسن وقتادة والسّدّيّ ومحمّد بن إسحاق وغيرهم من السّلف والخلف ، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النّبيّ ﷺ . فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد ... عن صهيب رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : للّذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، وقال : إذا دخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النّار النّار نادى منادٍ يا أهل الجنّة إنّ لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون وما هو ؟ ألم يثقّل موازيننا ؟ ألم يبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنّة ويجرنا من النّار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه . فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبّ إليهم من النّظر إليه ولا أقرّ لأعينهم . وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمّة[1] .

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

وترهقهم ذلّة : وتغشاهم ذلّة وهوان بعقاب الله إيّاهم[2] وتعتريهم وتعلوهم ذلّة من معاصيهم وخوفهم منها[3] .

ما لهم من الله من عاصم : أي مانع ولا واقٍ يقيهم العذاب[4] .

كأنّما أغشيت وجوههم : كأنّما ألبست[5] .

تحدّثت الآية الكريمة السّابقة عن فضل الله تعالى على المحسنين ، وتحدّثت الآية الكريمة هذه عن عدل الله تعالى إزاء الظّالمين . إنّ الآية الكريمة تقرّر أن الذين كسبوا السّيّئات وارتكبوا الموبقات جزاء سيّئة واحدة بمثلها وذلك في مقابل جزاء الله تعالى الحسنة للمحسنين ومضاعفة الثّواب إلى ما يزيد على السّبعمائة ضعف . إنّ هؤلاء المسيئين ترهقهم ذلّة الباطن ويزعجهم هوان الدّاخل ، وليس لهم من الله سبحانه وتعالى من عاصم يعصمهم من عذاب

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤١٤ .
(٢) تفسير الطبري ١١/٧٧ .
(٣) تفسير ابن كثير ٢/٤١٥ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٤١٥ .
(٥) تفسير الطبري ١١/٧٧ والجلالين .

الله تعالى ، ولا واقٍ يصرفه عنهم . وقد استتبع سوادُ الظّاهر وكآبة منظره ذلّةَ الباطن وهوان مخبره ، وكأنّ الوجوه التي عليها غبرة والّتي ترهقها قترة قد أغشيت وكُسيت وألبست « قطعاً من اللّيل مظلماً » قد وُصِلَ بعضها ببعض ، وركب بعضها بعضاً فكان منها أقبح منظر وأسوأ أثر . إنّ أولئك هم أصحاب النّار الذين هم فيها خالدون ، وذلك في مقابل خلود المحسنين في جنّات النّعيم .

وإنّ السياق ليذكّرنا بمثل قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ يوم تبيضّ وجوهٌ وتسودّ وجوه . فأمّا الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأمّا الذين ابيضّت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

ثمّ نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم : أي امكثوا مكانكم وقفوا في موضعكم أنتم أيّها المشركون وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله من الآلهة والأوثان[2] والزموا أنتم وهم مكاناً معيّناً امتازوا فيه عن مقام المؤمنين كقوله تعالى : وامتازوا اليوم أيّها المجرمون . وقوله : ويوم تقوم السّاعة يومئذٍ يتفرّقون[3] .

فزيّلنا بينهم : ميّزنا بينهم وبين المؤمنين[4] وفرّقنا[5] .

هنالك تبلو كلّ نفسٍ ما أسلفت : أي في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كلّ نفسٍ وتعلم ما سلف من عملها من خير وشرّ ، كقوله تعالى : يوم تُبْلَى السَّرائر[6] .

---

(١) سورة آل عمران ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٢) تفسير الطبري ٧٨/١١ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤١٥/٢ .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير الطبري ٧٨/١١ .
(٦) تفسير ابن كثير ٤١٦/٢ .

يستمرّ الحديث في الآيات الكريمات الثّلاث عن المشركين ومعبوديهم والخصام الذي يجري بينهم يوم القيامة .

إن الآية الكريمة الأولى تقرّر أن ربّ العزّة سوف يحشر يوم القيامة كلّ من في الأرض جميعاً ، وفيهم المؤمن والكافر والبرّ والفاجر ، ثم يقول ربّ العزّة للذين أشركوا : الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم المعبودون من دون الله تعالى وامتازوا اليوم وانفصلوا أيّها المجرمون عن المؤمنين . ويفرّق الله سبحانه وتعالى بين المؤمنين وبين الكافرين ومعبوديهم . ولمّا كان بعض المعبودين العاقلين من لا علم له بعبادة الآخرين له فضلاً عن السّكوت عن ذلك أو الرّضا عنه أو الدّعوة إليه ، فإنّ هؤلاء المعبودين مع الله تعالى يقولون لعابديهم إنّكم « ما كنتم إيّانا تعبدون » فإنّا لا علم لنا بذلك أصلاً .

وفي الآية الكريمة التّالية يواصل المعبودون حديثهم ، ويفرّون إلى أحكم الحاكمين الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء ، والذي تكفي شهادته وتغني عن كلّ شهادة بأنّ هؤلاء المعبودين كانوا غافلين عن عبادة أولئك العابدين لهم .

والآية الكريمة الثّالثة تقرّر أن كلّ نفس سوف تعلم وتختبر يوم القيامة ما أسلفت وقدّمت في الحياة الأولى من عمل ، وسوف تردّ إلى الله تعالى مولاها الحقّ الذي يحاسبها ويجازيها على كلّ حسنةٍ أو سيّئة . وفي ذلك اليوم سوف يتأكّد للمشركين أنّ المُلْكَ لله تعالى وحده لا شريك له فإنّ ما كانوا يعبدون من دون الله تعالى قد ضلّ عنهم وغاب ، وتفرّقت بهم الأسباب ، ونال كلٌّ ما يستحقّ من عذاب .

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

تستمرّ الآيات الكريمات في حديثها عن المشركين .

إن الآية الكريمة الأولى تأمر المصطفى ﷺ أن يقول للمشركين ويسألهم : من يرزقكم

أيّها المشركون من السّماء بالمطر ومن الأرض بالنّبات : « أمّن يملك السّمع والأبصار » والمعنى : بل[1] من يملك القوى السّامعة والقوى المبصرة بالزّيادة أو النّقصان حتى ينتهي الأمر إلى الصّمم والعمى ، ومن يخرج الحيّ كالدّجاجة ، من الميّت كالبيضة ، ويخرج الميّت كالبيضة ، من الحيّ كالدّجاجة ، ومن يدبّر الأمر من السّماء إلى الأرض في هذا الملكوت العظيم ؟ إنّ المشركين سيقولون إنّ الفعّال لكلّ ذلك هو الله تعالى وحده لا شريك له ، فقل لهم أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم : « أفلا تتّقون » عذاب الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهي . إنّ هذا هو الجواب على هذا السّؤال التّقريريّ لأنّه لا جواب سواه ، والمعروف أنّ المشركين يؤمنون بتوحيد الرّبوبيّة ، فالله تعالى هو مربّيهم بكلّ النّعم والآلاء وحده لا شريك له ، ولكنّهم يشركون مع الله تعالى آلهةً أخرى ، ويعبدون مع الله تعالى سواه ، ويرتكبون الذّنب الذي لا يغفره الله تعالى ، وهو الإشراك مع الله في توحيد الألوهيّة سواه .

أما وقد أصاب المسئولون في الجواب فإنّ الآية الكريمة التّالية ترشدهم إلى توحيد الألوهيّة وتقول لهم إنّ ذلكم الله تعالى المستحقّ للعبادة وحده لا شريك له هو الرّبّ الحقّ والإله الصّدق . وكما أفردتموه جلّ وعلا بشأن توحيد الرّبوبيّة عليكم إفراده جلّ وعلا بشأن توحيد الألوهيّة ، ويكون ذلك عن سؤال المشركين التّقريريّ : « فماذا بعد الحقّ إلّا الضّلال » وماذا بعد الانصراف عن دين الإسلام الحقّ إلّا الضّلال والكفر والضّياع فأنّى تُصْرَفون أيّها النّاس عن الإيمان بعد ثبوت الحجّة ووضوح البرهان .

وتقرّر الآية الكريمة الثّالثة والأخيرة أنّ هؤلاء المشركين كما صُرِفوا عن الحقّ إلى الضّلال جزاء انصرافهم عن الحقّ وإصرارهم على الضّلال حقّت عليهم كلمة ربّك بسبب فسقهم وكفرهم أنّهم لا يؤمنون حتّى يلقوا الله تعالى . وما دام المشركون قد ماتوا متلبّسين بشركهم وبارتكاب الذّنب الذي لا يغفره الله تعالى فذلك معناه أنّهم حقّت عليهم كلمة ربّك بدخول جهنّم على نحو ما أشار إلى ذلك قوله تعالى من سورة هود[2] : ﴿ وتمّت كلمة ربّك لأملأنّ جهنّم من الجنّة والنّاس أجمعين ﴾ .

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٦/٩٨ .

(٢) الآية ١١٩ .

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

فأنّى تؤفكون : فأيّ وجهٍ عن قصد السّبيل وطريق الرّشد تُصرَفون وتُقلَبون[1] وكيف تُصرَفون عن طريق الرّشد إلى الباطل[2] .

أمَّن لا يَهِدِّي : فيه قلب التّاء دالاً وإدغامها مع الدّال الثّانية ، أصله يهتدي ، فلمّا أريد إدغام الدّالين سكّنت الأولى ، وقد كانت الهاء قبل ذلك ساكنة ، فكسرت تخلّصاً من التقاء الساكنين ، وزنه يفتعل[3] .

على غرار آية كريمة سابقة في القسم تبدأ الآية الكريمة الأولى بأمر المصطفى ﷺ أن يقول للمشركين وأن يسألهم في أسلوب التّوبيخ والتّقريع هل من شركائهم الذين يشركونهم مع الله تعالى في العبادة من يبدأ الخلق ويفنيه ثمّ يعيده . والجواب معروف بطبيعة الحال بالنّفي . وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لهم : ولكنّ الله سبحانه وتعالى يبدأ الخلق ثمّ يفنيه ثمّ يعيده « فأنى تؤفكون » وكيف تُصرَفون عن الصّراط المستقيم إلى طريق الباطل .

وتبدأ الآية الكريمة الأخرى على غرار الآية الكريمة السّابقة فتأمر المصطفى ﷺ أن يقول للمشركين وأن يسألهم على سبيل التّوبيخ والتّقريع كذلك : هل مِنْ شركائكم الذين تشركونهم مع الله تعالى في العبادة من يهدي إلى الحقّ ويقود إلى الرّشد . والجواب معروفٌ

---

(١) تفسير الطبري ٨١/١١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤١٧/٢ .
(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠٥/٦ .

بطبيعة الحال بالنّفي على غرار كلّ سؤال سابق من نوعه . وتأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لهم إنّ الله سبحانه وتعالى يهدي إلى الحقّ وإلى الصّراط المستقيم .

وترتّب الآية الكريمة على هذه المفارقة سؤالاً تقريعيًّا توبيخيًّا للمشركين فتسألهم : أفمن يهدي إلى الحقّ وهو الله تعالى القادر على كلّ شيء أحقّ أن يُتّبع وأولى بأن يُعْبَد أمّن لا يهدي سبيلاً إلّا أن يُهْدَى ويُرْشَد ويقاد . وبما أنّ الجواب معروفٌ لكلّ عاقل وبما أنّ المشركين لم ينتفعوا بعقولهم فإنّ الآية الكريمة تسأل المشركين في إنكار : ما الذي دهاكم حتّى حكمتم هذا الحكم الفاسد فصرفتم العبادة عن الله تعالى المستحقّ وحده للعبادة إلى سواه .

وإنّ الآية الكريمة الثّالثة والأخيرة تقرّر أنّ هؤلاء المشركين ما يتّبع أكثرهم في عبادة غير الله تعالى إلّا الظّن الذي لا يُغْني من الحقّ شيئاً ، كما تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى عليم ، هكذا في صيغة المبالغة ، بما يفعلون من شرك وآثام .